صفاء حسني ناعمة
٢٠٠٢م

شعر الفقهاء

نشأته وتطوره حتى نهاية العصر العباسي الأول

الدكتور
حسني ناعمة
مدرس الأدب الإسلامي والأدب العباسي
بجامعة تشرين « اللاذقية »

المكتبة العربية بحلب

٣٢٢١
الدكتور حسني ناعمة
شعر الفقهاء
المكتبة العربية
٦ر٨١١ ن ا ع ش

من مطبوعات

المكتبة العربية بحلب
محمد تلاليني
ساحة فرحات ـ الصليبة ـ المطبعة المارونية
ص.ب: ٩١٣٥ ✉ ☎: ١٣٠٤٦

اسم الكتاب	المؤلف	المحقق	السعر
شرح الملوكي في التصريف	ابن يعيش	الدكتور فخر الدين قباوة	٢٦ ل ل
ديوان سلامة بن جندل	الأصمعي والشيباني	ـ	٢٦٫٧٥ ل ل
القسطاس في علم العروض	جار الله الزمخشري	ـ	٣٠ ل ل
شرح مقصورة ابن دريد	الخطيب التبريزي	ـ	٨ ل ل
سلامة بن جندل	الدكتور فخر الدين قباوة		١٦ ل ل
إعراب الجمل وأشباه الجمل	ـ		٢٥ ل ل
منهج الخطيب التبريزي	ـ		[redacted] ل ل
المنهل من علوم العربية	حلواني ـ فاخوري ـ زكار		[redacted] ل ل
شرح أبيات سيبويه	النحاس	الدكتور أحمد خطاب	٢٢ ل ل
دلائل النبوة (مجلدان)	أبو نعيم الأصبهاني	قلعجي وعباس	٧٥ ل ل
أعلام الاسلام	عبد الوهاب سكر		٥ ل ل
النحو في اللغة العربية	قواعد وإعراب وتعبير	سيادي ـ بدر ـ شيخ تراب	١٠ ل ل
مع الاسلام	أبو الحسن الندوي		[redacted] ل ل
كيف أصلي	قلاش وزيتو		١٥٠ ق ل
مشكلاتنا الاجتماعية في الاسلام	مصطفى صبري مفتي الديار العثمانية		٤ ل ل
على طريق الوعي الحضاري الاسلامي	محمد منلا غزيل		٤ ل ل
في رحاب الأدب العربي	ـ ـ		٤ ل ل
كلمات على طريق الوعي الحضاري	ـ ـ		٣ ل ل
الوجيز في الأدب العربي	الدكتور محمد خير الحلواني		٦ ل ل
أدباء العرب للمستشرقين	قاسم أحمد		٣٥٠ ق ل
شعر الفقهاء	الدكتور حسني ناعمة		[redacted] ل ل
القادمة من سباحات الليل	ضياء قصبجي		٦ ل ل

الثمن ... ل.

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

المكتبة العربية بحلب
محمد ناجي سلايمي
ساحة فرحات - الصليبة - المطبعة الماروتية
ص.ب: ٩١٢٥ ✉ ☎ : ١٣٠٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تناولت هذه الدراسة شعر الفقهاء، بالمعنى الاصطلاحي لكلمة فقه، وتحدثت عن هذا اللون من الأدب منذ نشأته في عصر النبي ﷺ وصحابته، إلى منتصف القرن الثالث للهجرة، وعرضت لذلك في ثلاثة أبواب.

وقد فصّل الباب الأول القول في أغراض الشعراء الفقهاء، وأولها الحكمة، وتشمل ما قالوه من أشعار في الإيمان والعقيدة، وهي أشعار تؤكد أن للناس إلهاً خالقاً، برأ العباد، وأنزل عليهم الدين، وجعل لهم حياة ثانية أخرى، ولعل ذلك ما دعاهم أن يطيلوا من تأملاتهم وتفكرهم في الحياة والإنسان والكون، وأن ينفذوا من ثمّ إلى عِبَرٍ كثيرة، ومواعظ قيّمة. ويلي الحكمة الغزل، وقد شُهِر به من بينهم عروة بن أذينة، وأكثر منه، ويتلوه الفخر ثم الوصف والعتاب والهجاء والرثاء والمدح.

وانتقلت بعد ذلك إلى الباب الثاني، فدرست ما في شعر الفقهاء من ملامح فنية، وتجارب شعورية، وصور تشخيصية، وموسيقا موقّعة. وما فيه أيضاً من ملامح نظم، وأفكار مجرّدة، وبساطة في بعض الأحيان، ثم أبنت أطرافاً من علاقته بالمجتمع الإسلامي الذي عايشه، ومدى التزامه بقيم الإسلام ومبادئه الخالدة.

واستعرضت في الباب الثالث سير الشعراء الفقهاء، ورادتهم في العصر الراشدي، وأعقابهم في العصرين الأموي والعباسي، وأفردت لأعلامهم بحوثاً مفصّلة بعض التفصيل، تحدثت فيها عن النعمان بن بشير، وأبي الأسود الدؤلي، وابن عتبة، وابن أذينة، وسابق البربري، من عصر بني أمية، وعن عبدالله بن المبارك، والإمام الشافعي، من العصر العباسي. وبالله التوفيق.

مني ناعسة

الباب الأول

الشعر = دراسة موضوعية

طرقت أشعار الفقهاء أكثر اغراض الشعر العربي ، ومن البدهي أن يغلب عليها إحساس ديني شفيف ، ذلك لقرابتهم الدانية من آيات الذكر الحكيم ، وأحاديث النبي الكريم ، وسير الصحابة والتابعين والفقهاء . وأول هذه الأغراض الحكمة ، فقد زادت على سائر أغراضهم - كل على حدة - بمقدار الضِّعف أو يزيد ، وما من ريب أن الإسلام قد هيّأ لها بما دعا إليه من عقل وتفكّر ، ومن مجاهدة للنفس وأخذها بأسباب التربية الخُلقية ، ومن ذلك قوله تعالى : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب اجلهم ، فبأيّ حديث بعده يؤمنون ؟ » (١) . وقوله عز من قائل : « قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادُون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » (٢) .

ويعقب الحكمة في شعر الفقهاء ، على التوالي بحسب أبياتهم ، الغزل والفخر والوصف والعتاب والهجاء والرثاء والمدح . وقد يُستغرب بعض هذه الأغراض في نتاجهم بادئ الرأي ، إلا أننا ، إذا وقفنا على مضامينها ، زال كثير من ذلك الاستغراب فالفقهاء الشعراء أناس كغيرهم من الناس ، يأكلون مما يأكلون ، ويشربون مما يشربون ، وإذا كان ينبغي لهم وقار العلماء وسمات الأتقياء ، فإن ذلك ليس بمانعهم أن يتغزّلوا بأزواجهم أمهات بنيهم ، أو يفتخروا بمحمدة ، أو يذمّوا منقصة . . . وبعبارة أخرى ليس المعيار في أن يقولوا غزلاً أو فخراً أو هجاء . . . إنما المعيار ما قالوه في هذه الموضوعات من فكر ومعان ، ولا بأس أن نستعرض ذلك بالتفصيل .

---

١) الأعراف ١٨٥ .

٢) المؤمنون ١-٨ واللغو : كل كلام ساقط . والعادون : الكاملون في العدوان .

الفصل الأول

الحكمة

الحكمة في اللغة هي العدل أو الكتابة أو العلم أو الحلم أو النهي عن الفساد.. ولكنني لا أقصد من الحكمة في شعر الفقهاء سوى المعنى الاصطلاحي الذي ذهب إليه الدكتور عبدالحليم محمود من أنها « المعرفة بالله »[1]، وأنّ لها سبيلين اثنين : العقل والتصفية، أو التفكير وتزكية الباطن، وأنّ مردّ الاستبصار في ذلك إنّما هو إلا الوحي والتنزيل وهداية الله[2].

ويقع تحت هذه المعاني للحكمة من شعر الفقهاء ما تناول الحديث عن الله - سبحانه - وصفاته، والايمان به، وباليوم الآخر، وما كان لهم من تأمّل في الحياة والانسان والكون، وما أخذوا به أنفسهم من إمعان في الاعتبار أو تربية الضمائر والأنفس بالزهد والموعظة والأخلاق.

١ - شعر الايمان والعقيدة :

يعكس شعر الفقهاء صورة واضحة عن حقيقة الايمان، فإن للناس إلهاً واحداً لا شريك له، خلق العباد، وأنزل عليهم الدين، ووهبهم نعماً غامرة من فضله الأوفر، وهو - سبحانه - خالد باقٍ مالك الملك يعلم الغيب والشهادة، ويفعل ما يشاء، وقد كتب على نفسه الرحمة واللطف والانعام... وكريم الصفات.

فالمرء يكدح في حياته، ويتقلّب في فنون عمله، لكنّ له ربّاً مهيمناً يعلم السرّ وأخفى، وإنه لمجازيه على ما قدّم يوم يأتيه فرداً ويشهد على نفسه بنفسه، يقول ابن المبارك :

١) التفكير الفلسفي في الاسلام ٢٣٢ و ٢٣٣.
٢) المصدر السابق ٧ و ٢٣١ و ٢٤٣ و ٢٥٣ ...

والآدميّ بهذا الكسْب مُرْتَهَنٌ ... له رقيبٌ على الأسرار يَطّلِعُ
حتى يوافيَه يوم الجمع منفرداً ... وخصمه الجلد والأبصار والسّمع[1]

والله هو المعبود الحقّ وحده، لا ربّ غيره، وإليه المعاد، وقد بانت أدلة الايمان به، وانقضت الحجج الداعية إليه، وأفعال الانسان قد تنصرف هذه الحقيقة فتهتدي وتستنير، وقد تهبط دون ذلك درجات، يقول الشافعي :

شهدْتُ بأنّ الله لا ربّ غيره ... وأشهد أن البعث حقٌ وأخلصُ
وأنّ عرى الإيمان قولٌ مبيّنٌ ... وفعلي زكيٌ قد يزيد وينقص[2]

والايمان ذخر ثمين بل هو كنز الآخرة، إذا كان الذهب كنز الحياة الدنيا، يقول الشافعي أيضاً :

واعلم بأنّ كنوز الأرض من ذهب ... فاجعل كنوزك من برّ وإيمان[3]

والله لم يذرْ عباده يتخبّطون على غير بصيرة من أمرهم ولا كتاب منير، بل منّ عليهم بالاسلام والقرآن استهداء لهم وإرشاداً لسعاهم، قال محارب بن دثار :

أحْمَدُ خالقي حمداً كثيراً ... بدا خَلْقي فأنشأه سَوِيّا
ومنّ عليّ بالإسلام حتى ... عرفتُ الدين مقتبلاً صبيا
وضمّنَ مُحْكَمَ الفرقان قلبي ... فكنتُ لمَنْ يَدين له وليّا
وأخّر مولدي قرناً فقرناً ... إلى الإسلام لم أك جاهليّا[4]

فهو يحمد الله سبحانه أن أتمّ خلقه، وغمرته، منذ يفاعته، أنوار دينه الحنيف فأصبح في المؤمنين المهتدين، وأخّر ميقات حياته إلى زمن الرسالة فلم يمت على جاهليّة. ويذكر النعمان بن بشير أيضاً هذه النعمة الكبرى، نعمة الدين الذي

١) تاريخ ابن عساكر (المعهد) ج ٦ (عبدالله بن المبارك)
٢) طبقات الشافعية للسبكي ١ / ١٥٦، ومناقب الشافعي للرازي ٨٧، ومناقب الشافعي للبيهقي ٢ / ٦٨. ٣) مناقب الشافعي للبيهقي ٢ / ٨٩. ٤) أخبار القضاة ٣ / ٣٠.

أنزله الله على قلب رسوله ليكون للعالمين نذيراً، فيقول:

تبارك ذو العرش الذي هو أيّدا لنا الدين واختار النبيّ محمّدا
رسولاً لنا يتلو علينا كتابه وينذرُ بالوحي المسير الموقّدا (١)

وقد انطلق الشعراء الفقهاء يرددون طويلاً حمد ربهم على هذه النعمة، ويكثرون من الثناء عليه، سبحانه، ويفيضون القول في تعداد صفاته الكريمة. فالنعمان بن بشير يسبّح الله عزّ وجلّ، ويذكر أنّ كل شيء هالك إلا وجهه: بيده الملك، وله الحكم، وهو الفعّال لما يريد، العليم بما يبدو وبما يستخفي، وهو الله الكريم العظيم الذي أنزل على الناس ديناً قيّماً يهديهم ويرشدهم، وهو الله الذي يُبدئ الخلق ثم يعيده:

كل شيء سوى المليك يَبيدُ لا يبيدُ المُسبّح المحمودُ
مالكُ المُلك لا يُشاركُ فيه وله الحُكم فاعلاً ما يريد
عالمُ الغيب والشهادة والفضـ ـل وذو المَنّ والجلال الحميدُ
وله الدينُ قاضياً متعالٍ هو يُبدي بعلمه ويعيد (٢)

وإنّ من مُلك الله الناس، شيبهم وشبّانهم وكهولهم وأطفالهم، وما في البحر من فُلك تمخر عُبابه تارة، أو تركد سواكن على ظهره تارة أخرى، وما في السماء من طير «ما يُمسكهنّ إلا الرحمن»... كلّ ذلك لله الذي «لم يكن له شريك في الملك» و«ولم يكن له كفواً أحد»:

وله الشيبُ والشّباب جميعاً كلّهم والمرشّح المولودُ
وله الجاريات في لجج البحـ ـر فمنها مَواخرٌ ورُكود
وله الطير في السماء تراهنّ قريباً ودونهنّ صعود
ليس لله ذي المعارج فيمن تحمل الأرضُ والسماء نديدُ (٣)

١) شعر النعمان ٩٤. ٢) شعر النعمان ٨٥. ٣) شعر النعمان ٨٦.

وتسترسل صفات الله في شعر الفقهاء، فهو المُهيمن العفوّ المنعم الوهّاب، غمرَ لطفُه الإنسانَ منذ كان في بطن أمّه مُضغة فكلأه، ثم اكتحلت عيناه بنور الحياة فحفظه، ثمّ اشتدّ وعا فأنفذ إليه أنوار الإيمان وألهمه أسباب التوحيد، قال الشافعي:

إنْ كنتَ تغدو في الذنوب جليدا وتخاف في يوم الوعيد وعيدا
فلقد أتاكَ من المُهيمن عفْوُه وأتاح من نِعَمٍ عليك مَزيدا
لا تيأسنْ من لطف ربّك في الحشا في بطن أمّك مُضغةً ووليدا
لو شاء أن تَصلى جهنّم خالداً ما كان ألهم قلبَك التوحيدا (١)

إن الله هو الغفور الودود الذي يقبل التوبة عن عباده ويتجاوز عن سيئاتهم قال النعمان:

ربّ إني ظلمت نفسي كثيراً فاعفُ عني أنت الغفور الودودُ
وقني شرّ ما أخاف فإني مُشفق خائفٌ لما تستعيدُ (٢)

وإرادة الله هي الماضية، وحُكمه النافذ، يعلم، منذ أن خلق الناس، ما سوف يصيبون وما سيكون عليه أمرهم، قال الشافعي أيضاً:

ما شئتَ كانَ، وإنْ لم أشأْ وما شئتُ - إنْ لم تشأ لم يكُنْ
خلقتَ العباد على ما علمتَ ففي العلم يجري الفتى والمُسنّ
فمنهم شقي ومنهم سعيدٌ ومنهم قبيحٌ ومنهم حَسَنْ (٣)

ومن صفات المولى في شعر الفقهاء أنه مليك إذا رجاه عباده رزقهم (٤)، وهو خبير حَكَمٌ عَدْلٌ لا يظلم نقيراً (٥)، وعليه يتوكل العباد فيرزقهم ويقسم

١) نور الأبصار ٢١٦. ٢) شعر النعمان ٩٢. ٣) مختصر تذكرة القرطبي ١٤ والانتقاء ٨٠ والوافي ٢/١٧٩. ٤) انظر أبياتاً لابن شهاب الزهري في معجم الشعراء ٣٤٥.
٥) انظر بيتين لابن المبارك في تاريخ ابن عساكر (المهد) ٦٥ (عبدالله بن المبارك). والنقير: النكتة في ظهر النواة.

بينهم معيشتهم ، قال الشافعي :

توكّلتُ في رزقي على الله خالقي ... وأيقنتُ أنّ الله لا شكّ رازقي
وما كان من رزقي فليس يفوتني ... ولو كان في قعر البحار النواسق
سيأتي به الله العظيم بفضله ... ولو لم يكنْ منّي اللّسانُ بناطقِ
ففي أيّ شيء تذهب النفس حسرةً ... وقد قسم الرحمن رزق الخلائقِ (١)

وذو العرش رحيم عليم يؤتي مِنْ لدُنْهُ الحِلْم ويؤيّد بالتقوى ، قال ابن المبارك :

أيا رب هذا العرش أنت رحيمُ ... وأنت بما تُخْفي الصدورُ عليمُ
فيا ربّ هب لي منك حلماً فإنني ... أرى الحلم لم يندم عليه حليم
ويارب هب لي منك عزماً على التقى ... أقيم به في الناس حيث أقيم (٢)

ومع الإيمان بالله يعرضون الإيمان باليوم الآخر والحياة الثانية التي تستفتح بمُواراة الميّت في قبره ، وفيه يذوق – إن كان من الآثمين – أول دفعات العذاب، وعندما يحين الحَشْر يمثل بين يدي الله في موقف رهيب رائع ليُثيبه ، بحسب عمله ، نعيماً أو جحيما .

وإذن فإن في اللّحْد ، للمذنبين ، عذاباً شديداً لو شهده الأطفال الرُّضّع لاشتعلت رؤوسهم شيباً ، وهنالك لا يتحمّل العذاب عن الآثمين إلاّ أنفسهم ، فهم أولى بما كانوا يكسبون ، يقول سابق :

وبعد دخول القبر يا نفسُ كربة ... وهَوْلٌ تُشيب المرضعين زلازلهْ
فلا يَرْتجي عوناً على حَمْل وِزْرِهِ ... مُسيءٌ وأولى الناس بالوزر حامله (٣)

١) نتيجة الأفكار ٨ . ٢) تاريخ ابن عساكر (المهد) ٦ (عبدالله بن المبارك).
٣) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٤٦ .

وهذه النّزْلة حَتْمٌ على رقاب العباد ، وليس يُفلت منها من الناس أحد ، إنّ المرء يظلّ طوال عمره ينعى غيره فإذا النعي أخيراً يكون عليه ، ويظلّ يضرب في شعاب الأرض لا يفتُر ، فإذا به يقيم في مثوى لم تمسسه من قبل قدماه ، يقول سابق أيضاً :

وللحتوف تُرَبّي كلّ مُرْضعة ... وللحساب برى الأرواح باريها
لا تبرح النفس تَنْمى وهي سالمة ... حتى يَقوم بنادي القوم ناعيها
ولن تزال طوال الدهر ظاعنةً ... حتى تقيم بوادٍ غير واديها (١)

ويلبث المتوفى بقبره ، حتى إذا قامت الساعة انتفض وانتظم في موقف الحشر أمام حاكم خبير عادل لا يظلم الناس شيئاً ، قال ابن المبارك :

استوَوْا عند مليكٍ بمَساويهم خبيرِ
حَكَمٍ يَعْدِلُ لا يظلم مقدار النّقير (٢)

ذلك يوم الفَصْل يشهده المرء وليس معه إلاّ مَلَكٌ يقوده ، وشاهدٌ ينطق أنّه قد بُلّغ ، قال النعمان بن بشير :

إنّما هذه الحياة غرورٌ ... بعدها الفصل بينكم والخلودُ
يومَ نُدعى إلى الحساب ومَنّا ... يوم نأتيك سائق وشهيد (٣)

إنّه مشهد هائل يأخذ الناسَ فيه على مصيرهم خوفٌ شديد ، فيموجون وكأنهم سكارى ، وما هم بسُكارى ، ولكن عذاب الله شديد ، وينجّي الله الصالحين من ذلك الهول المصيب ، فيجعلهم مع الأنبياء في مكانة عليّة ، قال النعمان أيضاً :

وترى الناس يحسبون من الكر ... ب سُكارى بل العذابُ شديدُ

١) المصدر السابق ٣٥٢ . ٢) تاريخ ابن عساكر (المهد) ٦ (عبدالله بن المبارك) ، والنقير : النقرة في ظهر النواة . ٣) شعر النعمان ٩٢ ، والشهيد كل ما يشهد عليه، ويشمل ذلك الملائكة والنبي والعمل والجوارح . انظر روح المعاني (بولاق) ٢٥٧/٨ .

وقف الناسُ للحساب جميعاً فشقيٌ معذَّبٌ وسعيدُ
والنبيُّون عنده بمكان في علاء والصالحون قعود [1]

ويقف الأنبياء الذين بلّغوا الناس ما نُزّل إليهم من ربّهم، ويقف إلى جنبهم شهود التبليغ، ويخيّم على المحشر جوّ من الخشوع التوجّس، ثم يتسلّم العباد سجلات ما قدّموه في حياتهم الدنيا، فيودّ الظالمون ـ بعد أن أصابوا حظوظهم في الأولى الفانية ـ لو كانوا ضباعاً أو خنازير أو أيّ صنف من المخلوقات، إلا البشر، لعلهم ينجون، ولات ساعة أمنية، فإنهم لو تفكّروا في دنياهم لأيقنوا أنّ هناك ثواباً وعقاباً، أما اليوم فليس ثمة رَجْعة ولا إعادة، قال ابن المبارك:

إذا النبيُّون والأشهاد قائمةٌ
والإنس والجنُّ والأملاك قد خشعوا
وطارت الصحفُ في الأيدي منشّرةً
فيها السرائرُ والأخبار تطّلع
يودّ قومٌ ذوو عزّ لو أنّهمُ
هم الخنازيرُ كي ينجوا أو الضبع
يُشفّعُ العلمُ قبل الموت عالمه
قد سالَ قومٌ بها الرُّجْعى فما رجعوا [2]

ثم تظهر النتائج، فريق يفوزون بالجنة، خالدين فيها، وفريق يكبكبون على على وجوههم في نار جهنم، فتموج بهم، وكلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ أعيدوا فيها، قال ابن المبارك:

أفي الجنان وفوزٍ لا انقطاعَ له أم الجحيم فما تُبقي ولا تَدَعُ

١) شعر النعمان ٩١. ٢) و ٣) تاريخ ابن عساكر (المعهد) ـ ٦ (عبدالله بن المبارك).

تَهوي بهلْكاتها طوراً وترفعهمْ إذا رجَوْا لخروجاً من غمّها وقعوا [1]

ثم ينقلب الطاغون إلى مردّ عصيب، عذابه شديد، وطعامه ضريع وصديد، وهو عذاب خالد مقيم، في نار نهمة شرهة، قال النعمان بن بشير:

فاتّقوا اللهَ واحذروا شرَّ يومٍ فمُطيرٍ عذابه مشهودُ
فطعامُ الغُواةِ فيها ضريعٌ وشرابٌ من الحميم صَديدُ
كلّما أُخرج اللّعينون منها ساعةً من عذاب غمّ أُعيدوا
وإذا قيل هل تقارب منها قالت النارُ: هل لديكم مَزيد؟ [2]

لكن المتّقون لهم عند ربهم، بما استقاموا على طريقته، جنات فيها من الآلاء ما يشتهون، قال النعمان:

سيجعلُ جنات النعيم لباسكم إذا ما التقيتم أيّكم كان أسعدا
ثواباً بما كانوا إلى الله قدّموا يُحلّون فيها لؤلؤاً وزبرجدا
لهم ما اشتهتْ فيها النفوسُ ولذّةُ العُيون فكانت مستقرّاً ومقعدا [3]

٢ ـ تأمّل وتفكّر:

وعلى هذي حقيقة الإيمان مضى الشعراء الفقهاء يطيلون التأمّل والتفكّر في الحياة والإنسان والكون، فليست هذه الحياة إلا سراباً وغروراً، ينتفخ ابن آدم فيها وينتفج ويغيب عنه أنها سريعة الزوال، وأنّ بعدها الآخرة دار القرار، وأن خير ما يدّخره إنما هو ما طاب من العمل ومن الكَلِم، قال النعمان:

إنما هذه الحياةُ غرور بعدها الفصل بينكم والخلودُ

١) شعر النعمان ٩٠، والغواة: جمع الغاوي وهو الضال، والضريع: طعام في جهنم، والحميم: الماء الشديد الحرارة، والصديد: هو الحميم أغلي حتى خثر.
٢) شعر النعمان ١٠٠ وزبرجد: جوهر. ٣) شعر النعمان ٩٢ ـ ٩٣.

خير ذخر مع اليقين لعبد عمل صالح وقولٌ سديدُ [1]

إنّ المرء يمضي في الحياة سنين، ولكنْ ماذا يجني بعد طول كدّه وكفاحه؟ هل ينال مداها ويحظى بآماله؟ لا، فما يكسبه فيها زهيد يسير، وهو تاركه - لا محالة - عما قليل، عندما ينشب أمامه شبح الموت، قال الحسن بن علي بن أبي طالب:

ومارستُ هذا الدهر خمسين حَجةً وخمساً أُزجّي قائلاً بعد قائلِ
فلا أنا في الدنيا بلغت جسيمَها ولا في الذي أهوى كدحْت بطائل
وقد شرعتْ دوني المنايا أكفَّها وأيقنتُ أني رَهْنُ موتٍ مُعاجل [2]

شأن الحياة - أيّاً كان - ماضٍ فانٍ، ومكان الرحلة عنها وشيكٌ قريب، والمصيبة الكبرى أن يخسر الإنسان نعيم الخلود، قال عمر بن عبد العزيز:

ولا خير في عيش امرىء لم يكن له مع الله في دار القرار نصيبُ
فإنْ تُعْجِبِ الدنيا أناساً فإنّها قليلُ متاعٍ والزّوال قريب [3]

ولسابق أبيات تصوّر ساعة مضيّ الحياة وفنائها، أو ساعة الحَشْرجة، وكيف تفارق الروح البدن فيَهوي مُنتزَع الحِلْية، تاركاً ما ثمّر من مال، وما أحبّ من أهل، ويمضي في سبيله لا يحمل معه إلا سجلاً يستعرض عمره كلّه، وما كان له في ذلك العمر من أعمال، وبينما يغسل الناسلون جسد ميّتهم، تبقى معه آثامه:

إذا الجسدُ المَعْمورُ زايل روحه خَوَى وجمالُ البيت بانفس آهلُهْ
وقد كان فيه الروح حيناً يزينه وما النِّعْد لولا نصله وحبائله
يزايلني مالي إذا النفسُ حشرجتْ وأهلي، وكَدْحي لازمي لا أزايله
ويُغسل ما بالجسم من ظاهر الأذى ولا يغسل الذنبَ المخالفَ غاسلُه [4]

١) العقد الفريد ٤ / ٢٠. ٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز ٢٢٦.
٣) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٤٧.

وللشاعر مقطوعة أخرى تذكر حال من يتغافلون عن الموت فيبتهم فلا يملكون منه هرباً ولا دفعاً، بل يفارقون أموالهم وما كسبوا وسط بكاء الثكالى وعويل النوادب، ويستسلمون للموت الذي يأتي على الغنيّ والفقير:

فكم من صحيح بات للموت آمناً أتتْه المنايا بغتةً بعدما هجعْ
فلم يستطعْ إذ جاءه الموت بغتةً فِراراً ولا منه بقوّته امتنع
فأصبح تبكيه النساء مُقنّعاً ولا يسمع الداعي إذا صوتَه رفع
وقُرّبَ من لحدٍ فصار مقيلَه وفارَقَ ما قد كان بالأمس قد جمع
فلا يتركُ الموتُ الغنيَّ لمالِه ولا مُعْدماً في المال ذا حاجة يدع [1]

وعلى هذا النحو يستفيض الحديث عن الموت، منتهى الحياة، فهؤلاء فريق يثورون فيحزن لهلاكهم أحبّتهم، ثم لا يلبث الآخرون حتى يسلكوا الطريق نفسه، أفلا انتبهوا إلى أنهم وإياهم في سياق واحد؟ وعلام لا تستيقظ النفس من غفوتها وتبصر نهايتها والمورد واحد، وكل الناس وارده. قال ابن المبارك:

أرى الناسَ يبكون موتاهُمُ وما الحيّ أبقى من الميّتينا
أليس مصيرهم للفنا وإن عُمّر القوم أيضاً سفينا
يساقون سَوْقاً إلى يومهم فهم في السياق وما يشعرونا
فإن كنت تبكين من قد مضى فبَكّي لنفسك في الهالكينا
فإنّ السبيلَ لكم واحد سيتّبع الآخرُ الأوّلينا [2]

تلك قاعدة الحياة في شعر الفقهاء، جيل يعمر الأرض، فيأمل ويطمع، ويصول ويجول، ثم يمضي، فإذا بجيل آخر يملأ خشبة المسرح، ويطعم الحياة كما طعمها الذي من قبل، ثم يمضي هو أيضاً بأوزاره وخطاياه، ويعمر المسرح جيل

١) حلية الأولياء ٥ / ٣١٨. ٢) تاريخ بن عساكر (المهد) حـ٦ (عبدالله بن المبارك)

جديد ، وهكذا دواليك ، قال سابق :

والمرء ما عاش في الدنيا له أمل ... إذا انقضى سفر منها أتى سفرُ
لها حلاوة عيش غير دائمة ... وفي العواقب منها المُرُّ والصَّبِر
إذا قضتْ زُمَرٌ آجالَها نزلتْ ... على منازلها من بعدها زُمَرُ (١)

لقد نظر الشعراء والفقهاء إلى الحياة نظرة شاملة ، وكأنهم يعالجون مسائل علمهم ، فيقفون عند الحوادث الفرعية يقلّبونها على وجوهها ثم يستنبطون لها قانوناً يضمّها في سلك جامع ، وكذلك الدنيا ، كلُّ الشواهد تعرض مسيرتها المتكرّرة ، الرتيبة ، فمنذ قوم تبع وثمود ، وشعيب وهود ويونس كان يشهد مسرحَ الحياة أفواجٌ من البشر ، يؤدّون أدوارهم ، وسرعان ما يندرون الخشبة ليظهر عليها جيل آخر من بعدهم ، قال النعمان :

قد رأيتم مساكناً كان فيها ... قبلكم قومُ تبّع وثمودُ
وقرون لقّتْهمُ رسل اللـــه ... شعيبٌ فكذّبوه وهود
وابن متّى الذي تداركه اللـــه ... من الغمّ وهو فيه عميد
فدعا دعوةً وقد غيّبته ... ظُلَمٌ دونها حنادسُ سُودُ (٢)

إن الحياة تجربة ليست غير ، يقدّم كلٌّ ورقة امتحانه ثم يمضي .. وهكذا تتعاقب الأجيال ، ويطوي القوم خلف القوم ، وهم مستسلمون لهذا النظام السائد الرتيب ، قال ابن المبارك :

إنها دار بَلاء ... وزوالٍ وغرورِ
كم لعمري صرعتْ قبـ ... ـلك أصحاب القصورِ
وذوي الهيئة في المجـ ... ـلس والجمع الكثيرِ

١) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٤٣ . ٢) شعر النعمان ٨٧ .

أُخرجوا منها فما كا ... ن لديهم من نكيرِ (١)

تلك صورة الحياة في شعر الفقهاء ، إنها سريعة المَرّ ، يغترّ بسرابها من يغترّ ، وينسى مصيره المحتوم ، فاذا به يدركه ، ويشيّع كلّ يوم فريقاً من الراحلين ، ولا يستشعر أنه سوف يمضي كما يمضون ، ويستسلم لهذا النظام المهيمن المتعاقب .

. . . . .

والإنسان في شعر الفقهاء مخلوق أبدعه الله وأشهده ، منذ كان في عالم الذرّ ، أنها هو عبد لمولاه ، وقد كتب عليه قِصَرُ العمر ، وناط به المسؤولية ، وهو ، خلال هذه الرحلة قد يرتكس ، إلا أنّ بمُكنته النهوض والاستقامة من جديد ، ويتقلب على الإنسان في حياته الدنيا شدّة ورخاء وقوة وذبول ، وليس له ، في كل ذلك ، من الأمر شيء ، إنْ هو إلا قضاء واقع وقدر نافذ .

فمنذ أنْ أراد الله سبحانه أن يخلق الناس استحصاهم بين يديه واستقصاهم من أصلاب آبائهم ، وأشهدهم أنه هو خالقهم ، فأقرّوا العبودية له وحده ، وعاهدوه على التوحيد ، قال النعمان :

وأخرَجَ ذرّيّاتِكم من ظهوركم ... جميعاً لكيما تستقيموا وأشهدا
عليكم وناداكم ألستُ بربّكم ... فقلتُمْ : بلى ، عهداً علينا مؤكّدا (٢)

ثم كانت حياة البشر ، من زمن أصلهم الأوّل آدم ، قليلة معدودة ليست تطول ولا تدوم ، قال سابق :

١) تاريخ ابن عساكر (المهد) ـ ٦ (ابن المبارك) .

٢) شعر النعمان ٩٥ ، هذا ويفسر بعض العلماء إخراج الذراري بأنه التناسل المعروف الذي يجري بينهم بالتوالد ، ويفسرون الاشهاد بأنه نصب الدلائل التي تهتدي بها عقولهم إلى الايمان . قال البيضاوي : « أي أخرج من اصلابهم نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن . . . ونصب لهم دلائل ربوبيته وركب في عقولهم ما يدعوهم إلى الاقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى . فنزل تمكينهم من العلم بها وتمكنهم منه منزلة الاشهاد والاعتراف على طريق التمثيل » . تفسير البيضاوي (المطبعة العثمانية) ٢٢٨ .

أبعد آدمَ ترجون البقاء وهل تبقى فروعٌ لأصل حين ينصهر (١)

والمرء محاسبٌ مسؤول عما يكسب في حياته ، فإذا تعدّى حدود ما أحلّ له مولاه ، إلى لذاذة محرّمة ، فإنّ ساعة اللذاذة تمضي ، وإنها تبقى ، بل يورده جهنم وسوء عذابها ، قال مسعر بن كدام :

تفنى اللذاذة ممّنْ نالَ صفوتَها من الحرام ويبقى الإثم والعارُ
تبقى عواقب سوء في مغبّتها لا خير في لذّة من بعدها النارُ (٢)

وقد ينحدر الإنسان - خلال عمره - في المأثم فيزلّ ، ولكنه يستطيع أن ينهض من عثرته ويستأنف الاستقامة ، ويفيد من تجارب الأيام ، قال سابق :

قد يرعوي المرء وما بعد هَفْوته
وتُحكِمُ الجاهلَ الأيّام والغِيَرُ (٣)

وقد عرض الشعراء الفقهاء صوراً كثيرة للإنسان عندما يرتقي إلى ما يليق به من مكانة في أشعارهم في التربية النفسية والفخر والمدح والرثاء والعتاب ، كما عرضوا حالات أخرى لهبوطه في الهجاء ، وسوف يمرّ ذلك عند تناول هذه الأغراض :

وحياة المرء في دنياه لا تجري على وتيرة واحدة ، بل هي متقلّبة بين الشدة والرخاء والضنك والسهولة ، يقول عروة بن أذينة :

تُعالج العيش أطواراً تقلّبه فيه أفانينُ تُطوى عن أفانينِ
باليُسْرِ والعسر والأحداث معرضةٌ
لا بدّ من شدّة فيها ومن لين (٤)

صنوف العيش أحوال وأحوال ، والمرء لا يملك أن يبدّل من ذلك شيئاً ،

١) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٤٣ .
٢) الزهرة ٦٨ ، وصفة الصفوة ٣ / ٧٣
٣) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٣٩ . ٤) شعر عروة ١١٨ .

وليس له إلا أن يستمتع بريعان شبابه ، ثم يبدأ في الانحدار ، تماماً كالغصن النضير يحول حطاماً نخرة ، قال سابق :

والمرء يصعد ريعانُ الشباب به وكلُّ مُصْعِدَةٍ يوماً ستنحدرُ
بينا ترى الغصنَ لَدْناً في أرومته ريّانَ صار حطاماً جَوْفُهُ نَخِرُ (١)

هكذا ينحدر ثم يمضي ، والأرض هي الأرض ، والسماء هي السماء ، لم يغيّر ، وما كان ينبغي له أن يغيّر من ناموس الكون شيئاً ؛ فإنّ كلمة الله هي الواقعة ، وحكمه النافذ ، وقدره الغالب ، فما الخير إلا أن يستسلم لهذه القدرة السائدة المهيمنة ، قال الشافعي :

قَدَرَ الله واقعٌ حَيْثُ يُقضى ورودُهُ
قد مضى فيك حُكْمُهُ وانقضى ما يريدُهُ
وأخو الحرص حرصه ليس مما يزيده
فأرِدْ ما يكون إذْ لم يكن ما تريده (٢)

. . . . .

وقد كان للشعراء الفقهاء في الكون المحيط بهم من حولهم تأمّل طويل ، فتفكّروا في تعاقب الأيام ودوران الزمن ، فالوجود مستمرّ ، والفلك يعدو ، والأمم تحيا ، خلال ذلك ، ثم تطوي ، قال سابق :

وكيفَ يأمنُ ريبَ الدهر مُرْتَهَنٌ
بعَدْوةِ الدهر إن الدهر عَدّاء
ألقى على الجيل من عادٍ كلاكِلَهُ
وقوم هودٍ فهُمْ هامٌ وأصداء (٣)

١) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الاموي ٣٤١ . ٢) روضة العقلاء ١٠٨ ومناقب الشافعي للبيهقي ١/٤١٨ . ٣) سابق البربري لعبدالله كنون بحث محقق في مجلة مجمع اللغة العربية =

إنّ الزمن يدور ، والليل يعقب النهار باستمرار ورتابة ، والمرء - خلال تعاقبهما - يودّع شبابه ونضارته ، قال الدؤلي :

أفنى الشبابَ الذي فارقتُ جِدّتَه
كرُّ الجديدين من آتٍ ومُنْطَلِقِ

لم يتركا ليَ في طول اختلافهما
شيئاً يُخاف عليه لذعة الحَدَقِ [1]

وقد انتقلوا من التفكّر في دوران الزمن الرتيب إلى التفكّر في القُدْرة التي أحكمتْ نظام الكون وما فيه ، قال النعمان بن بشير :

فكيف لو أنّ الليل كان عليكمُ ظلاماً إلى يوم القيامة سَرْمدا
من الخالقُ الباري لكمْ كنهاركمْ نهاراً يُجَلّي ليله المتنمّدا ؟
مرجْتَ لنا البحرين بحراً شرابُه فُراتٌ ، وبحراً يحمل الفُلْكَ أسودا
أجاجاً إذا طابت له ريحُه جرتْ به وتراها حين تسْكُنُ رُكّدا
فما منكمُ مُحْصٍ لنعمة ربّه وإنْ قال ما شا أن يقول وعدّدا
سوى أنّها عمّتْ على الخلق كلهم لأفضل ذي فضل وأحسنه يدا [2]

فما كان لأحد ، لو قضى الله أن يجعل الحياة ظلاماً دائماً ، أن يأتي بضياء من عنده ، لكنه - سبحانه - نوّر النهار ، وجعل - في البحر - ماءً عذباً فراتاً سائغاً شرابه ، وماءً ملحاً ثقيلاً تسعى المواخر على ظهره ، إذا جرت الرياح ، أو تقف

= المجلد ٤٤ - ١ / ٢٧ ، وهام وأصداء كناية عن هلاكهم ، والهام طائر يصر بالليل ، وهو الصدى أيضاً ، والصدى : طائر يخرج من رأس المقتول إذا بلي ، بزعم الجاهلية ، وذكر البوم .

١) ديوانه ٢٢٢ ، والجديدان : الليل والنهار ، ولذعة الحدق : يريد الاصابة بالعين ، والحدقة : سواد العين .

٢) شعر النعمان ٩٨ ، وسرمداً : دائماً ، والنمد : المتور ، ومرج البحرين : جعلهما لا يلتبس أحدهما بالآخر ، والفلك : السفينة ، والأجاج الماء الشديد الملوحة .

من بعدها رواكد ، وقد أتمّمَ سبحانه نعماً أخرى ، لا يحصيها العدّ ، فغمرت الخلائق أجمعين . ويعود النعمان في موضع ثان فيتفكّر في هذا الفضاء الرحب ، وما أبدع فيه المولى - جلّت قدرته - من سموات وأرضين ، وما هيّأ في المعمورة من أسباب الحياة ، فبسطها ، وأحسن شأنها ، وألقى فيها رواسي أن تميل ، وأسبغ على عباده فيها أرزاقهم :

بنى فوقنا سَبْعاً طِباقاً وتحتَها من الأرض سوّى مثلهنّ ومهّدا
وذلّلها حتى اطمأنّتْ بأمره وعمّ علينا رزقه ثم أوتدا
عليها الجبالَ الراسياتِ فشدّها فأرسى لكم سهل المناكب مُلْبِدا [1]

وواضح من الضمائر المتكاثرة في أبيات الشاهدين المتقدّمين أن الله تعالى إنما سخّر الكون بليله ونهاره وبحره وبرّه وأرضه وسمائه من أجل البشر .

ولعل من الطريف أن نجد منذ عهود مبكرة من تاريخ شعر الفقهاء تعبيراً حيناً عما اصطلح عليه فيما بعد بوحدة الوجود ، ولست أعني شطط ذوي التصوّف الذين زعموا لهم اتحاداً مع الله - تعالى عما يقولون - وإنما أعني ذلك التصوّر الشامل الذي ينظر إلى الإنسان وإلى الكون على أنهما من مشكاة واحدة ، من صنع الله ، وأنّ نظامهما واحد ، هو تدبير بديع السموات والأرض ومَنْ فيهنّ .

وقد مرّ بنا من قريب تشبيه سابق لزوال ميعة الشباب بيباس الغصن الرطيب وانحطامه ، ويقرب من هذا المعنى ما رآه ابن المبارك من أن الناس ليسوا إلا نباتاً ما أن يطلع وينضر حتى يحصده الفناء ، وأنّ ليست أعمالهم إلا غِراساً لهم يتعلقون جناها في الآخرة :

يا أيها الناسُ أنتمُ عُشُبٌ يحصده الموت كلّما طلعا
لا يحصد المرء عند فاقته إلا الذي في حياته زرعا [2]

والإنسان والقمر ، في رأي عروة بن أذينة ، يُسْلكان في نظام واحد ،

١) شعر النعمان ٩٤ وأوتد : ثبت وأقام ، والمناكب من الأرض : المواضع المرتفعة ، وملبدا : لازقاً ومتجمعا .

٢) جامع بيان العلم وفضله ١ / ٢٣٦ .

فما إن يأفل نجم المرء حتى يهوي، وما إن يروق ضوء القمر حتى يخبو، وما إن يتمّ لكل شيء جدّته حتى تنحسر:

إنّ الفتى مثل الهلال له نورٌ ليالي ثم يمّحق
يَبلى وتُفنيه الدهور كما يُبلى وينضو الجِدّةَ الخَلَقُ[1]

فالشعراء الفقهاء تأمّلوا دورة الزمن الرتيبة المتعاقبة، وتفكّروا في مظاهر الكون من ليل ونهار وسماء وأرض، واستدلّوا بها على الخالق الذي أبدعها، واهتدوا إلى أنّ نظاماً شاملاً يهيمن على الإنسان وعلى الكون، ويحكمهما جميعاً.

٣ ـ العبَر:

وكان الشعراء والفقهاء وهم يمضون في حكمتهم يهتمّون اهتماماً كبيراً بالقواعد الممتازة، التي يصطفيها القوم الأذكياء من خلال حياة البشرية وعمرها الطويل وامتدادها الرحب الفسيح، ويضيفون إلى تراث ذلك من عندهم خلاصات منتقاة وتجارب ثمينة وحِكَماً تُعتبر.

وتمضي خلاصاتُ فِكَرهم أو قل صحائح أمثالهم أو قل ما اجتنبوه من القواعد من الحياة في جوانب شتى، فما أوتي امرؤٌ جوامع العلم، وإنما يجدّ ويشطّ وكلما أمعن في جدّه ونشاطه أيقن أنّ ما اكتسبه منه قليل، وأنّ الذي دونه من أبواب العلم كثير كثير، قال الشافعي:

كلّما أدّبني الدهـــــر أراني نقص عقلي
وإذا ما ازددتُ علماً زادني علماً بجهلي[2]

فخيرٌ له أن يعرف حدّه ويقف عنده، فما سبق ثعلبٌ أسداً، ولا أمدّت الأثماد القليلة بحراً محيطاً بموج عارم ولا تيّار هائل، قال عروة:

لا صَبْرَ للثعلب الضّباح ليس له
حِرزٌ على عَدوات المُشبل الضّاري

١) شعر عروة ٣٤١. ٢) وفيات الأعيان ٣/٣٠٨، والوافي بالوفيات ٢/١٧٩.

لا تستطيع الكُدى الأثمادُ راشحةً
مدّ البحور بأمواج وتيّار[1]

وأرفقُ الناس بالمرء نفسُه، وهو أولى أن يحفظ كرامته، ويصون ماء وجهه، قال الشافعي:

ما حكّ جِلدَكَ مثلُ ظفرِكْ فتولّ أنت جميع أمرِكْ
وإذا قصدتَ لحاجة فاقصد لمترفٍ بفضلك[2]

والمرء هو الذي يحفظ سرّه ويخاصّ أمره، ولا يؤمنّ إلا نفسه إن ضاقت به عن أسرارها، وماذا يعني السرّ إلا ما لا يطلع عليه سوى صاحبه؟ قال ابن عتبة:

إذا كان لي سرٌّ فحدّثتُه العِدا وضاق به صدري فللناسُ أعذَرُ
وسرّكَ ما استودعتَه وكتمته وليس بسرٍّ حين يفشو ويظهر[3]

والإنسان بأفعاله لا بأقواله وبمخبره لا بمظهره، فكم نحيف الجسم يعدّ في الحصفاء العظماء، وكم ذي رُواء ليس منهم، ذلك أن الإنسان بما يملكه من قوى دافعة إلى الفضل والارتقاء، جسيماً كان أم ضئيلاً، قال الدؤلي:

ترى المرء النحيف فتزدريه ـ وفي أثوابه رجل مَريرُ
ويعجبك الطريرُ فتختبره فيخلف ظنّك الرجل الطرير
وما عِظَمُ الرجال لهم بزَيْنٍ ولكن زينها مجدٌ وخيرُ[4]

ويضرب سابق لمن يبتغي الضرر لغيره مثلاً بحافر بئر لإيذاء الناس، فإذا هو

١) شعر عروة ٢١٢ والصباح: الذي يخرج الصوت، والحرز: الموضع الحصين، والمشبل الضاري: الأسد المفترس ذو الأشبال، والكدية: الأرض الصلبة، والثمد: الماء القليل.
٢) نور الأبصار ٢١٤ وشذرات الذهب ٢/١١ ومناقب الشافعي للبيهقي ٢/٧٧.
٣) الأغاني (دار الثقافة) ٩/١٤٢.
٤) أخبار القضاة ١/٢٨٨ والطرير: ذو المنظر والرواء، والخير: الكرم والشرف.

يهوي فيها من دونهم ، وكذلك كل ظالم لا بدّ أن يذوق وبال أمره وعاقبة ما قدّم :

فلا تحفِرَنْ بيراً تريد أخاً بها ... فإنّك فيها أنتَ من دونه تقعُ
كذاك الذي يبغي على الناس ظالماً ... تُصِبْهُ على رَغمٍ عواقبُ ما صنع[1]

والصديق - في رأي النعمان - إبّان الضيق ، والقريب النافع من لم ينأ آصرة الرّحيم إذا أصاب غنى ونال حظاً :

فلا تعدُدِ المولى شريكك في الغِنى
ولكنّما المولى شريكك في العدمِ
إذا متّ ذو القربى إليك برَحْمِهِ
وغشّك واستغنى فليس بذي رحم[2]

وتلك الأمثال كانت عصارة تجارب طويلة مارسها الفقهاء خلال أعمارهم ، وكثيراً ما نجدهم يحدّثوننا عن تلك التجارب ، ويسترسلون في حديثهم الذي عرفوه من قبل واقعاً مشهوداً ، ويبدئون ويعيدون ما استخلصوه من آراء قيمة في الحياة . فأبو الأسود الدؤلي يذكر خبرته الواسعة بأحوال الناس ، وكيف رضي منهم صالحات فأخذها ، ونقم على مذامّ فهجرها ، وكان مما اصطفاه وأخذه أن يفي بالوعد وفاء من يجعله كالدّين المكتوب إذا أقرّ به غارمه ، وبذلك يستحثّ نفسه استحثاثاً قوياً على الوفاء ، ويتقي حساب ربه ، ولا يدع للناس إليه سبيلاً . وإذا أراد أن يمنع أمراً أعلن ذلك صراحة حتى لا يعاني السائل من مشقّة الانتظار ، ويسلك أبو الأسود « منهاج النظرة الشاملة » فإذا هو لا يفعل ما يؤدّي إلى ذم باقٍ أبـــد الآبدين من أجل ثناء عاجل أو حمد زائل :

وبلوتُ أخبارَ الرجال وفعلهم ... فلمستُ علماً منهم وتجاربا

١) سابق البربري لعبدالله كنون ٣٠ .
٢) شعر النعمان ١٥٩ ، والعدم : الفقر ، ومت : اتصل .

فأخذتُ منهم ما رضيتُ بأخذه ... وتركتُ عمداً ما هنالك جانبا
فإذا وعدتُ الوعد كنت كغارم ... دَيْناً أقرّ به وأحضر كاتبا
حتى أنفّذَه على ما قلتُه ... وكفى عليّ به لنفسيَ طالبا
وإذا فعلت فعلت غير محاسِبٍ ... وكفى بربّك جازياً ومحاسبا
وإذا منعتُ منعتُ منعاً بيّناً ... وأرحتُ من طول العَناء الراغبا
لا أشتري الحمد القليل بقاؤه ... يوماً بذمّ الدهر أجمع واصبا[1]

وكان للإمام الشافعي خلالَ حياته الزاخرة بالدأب والجِدّ والرّحلة تجارب وافرة ، وهي تجارب كان يردّد في خواتمها أنما الدنيا سراب خلاّب ، وأن الغرور قد حجب عن المتنفخين به حقيقتَها ، فأقبلوا عليها بشراهة إقبال كلاب أصابوا جيفة نتِنة ، فهَمّ كلٌّ أن يقتنص المزيد ، فمن آثر من الناس السلامة تجنّب الدنيا ، ومن طلبها نافسه عليها المتنافسون :

ومَنْ يَذُقِ الدنيا فإني طَعِمْتُها ... وسِيقَ إلينا عَذْبُها وعذابُها
فلم أرَها إلا غروراً وباطلاً ... كما لاح في ظهر الفلاة سَرابُها
وما هي إلا جيفةٌ مستحيلةٌ ... عليها كِلابٌ همُّهُنّ اجتذابُها
فإنْ تجتنبْها كنتَ سلماً لأهلها ... وإن تجتذبْها نازعتْك كلابها[2]

ويخبرنا الشافعي في قصيدة أخرى كيف ابتلى الناس فوجد الأثرة حشوَ جلدهم فحسم الطمع وعفّ واستغنى عما في ايديهم ، ووجد فيهم الظّلاّم فرسم لهم نهايتهم المحتومة يوم تفرّ أموالهم ويسقط جاههم ، وتسودّ صحائفهم بالآثام ، ويصبّ عليهم ، بما فعلوا ، العذاب :

١) الأغاني (دار الثقافة) ١٢/٣١٣ وواصباً : دائماً .
٢) مختصر تذكرة القرطبي ١٦ ، وانظر الفتوحات الوهبية ٢٥١ ، وشذرات الذهب ٢ / ١٠ .

بلوتُ بني الدنيا فلم أر فيهمُ ... سوى من غدا والبخل ملءَ إهابهِ
فجرّدت من غِمْدِ القناعة صارماً ... قطعتُ رجائي منهم بذُبابه
فلا ذا يراني واقفاً في طريقه ... ولا ذا يراني قاعداً عند بابه
غنيٌّ بلا مال عن الناس كلّهمْ ... وليس الغنى إلاّ عن الشيء لا به
إذا ظالمٌ يستحسن الظلم مذهباً ... ولجّ عتوّاً في قبيح اكتسابه
فكِلْهُ إلى صَرْفِ الليالي فإنّها ... ستبدي له ما لم يكن في حسابه
فكم قد رأينا ظالماً متمرّداً ... يرى النجم تيهاً تحت ظلّ ركابه
فعمّا قليل وهو في غفلاته ... أناخت صروف الحادثات ببابه
فأصبح لا مالٌ ولا جاهَ يرتجي ... ولا حسنات تلتقي في كتابه
وجوزيَ بالأمر الذي كان فاعلاً ... وصبّ عليه الله سَوْطَ عذابه (1)

لقد كان الفقهاء وهم يبثّون الناس تجارب حياتهم وأحاديث ألبابهم يشبهون من تسنّم أرقى القمة المشرفة ثم جعل يرقب المشاهد على السفوح ببصيرة نافذة وعقل مستنير ، فإذا هم لا يقفون عند خبرتهم الخاصة بل يمضون ليدعوا إلى الاعتبار بكل لامنة والاهتداء بكل سَداد . فالشافعي يرسم صورة جاده في رحلته إلى بلدة عقد عليها الأمل ، ولكنه لا يدري أن الموت ينتظره هناك انتظاراً ، ويصور امرأً غارقاً في ضحكه غافلاً عن سلطان الموت الداني منه ، ولو علم ذلك فاض كمداً وكآبة :

ومُتْعِبِ العِيس مرتاحٍ إلى بلدٍ ... والموت يطلبه من ذلك البلدِ
وضاحكٍ والمنايا فوق مفرقه ... لو كان يعلم غيباً مات من كَمَدِ (2)

1) ديوانه ١٦ وإهابه : جلده .
2) مناقب الشافعي للرازي ٢٠٥ ومناقب الشافعي للبيهقي ٢/١٠٦ والعمدة ١/١٨٠.

ويصوّر مسعر بن كدام رجلاً يبني داراً مأوىً له ، فما إن يتم بناؤها حتى يبغته الموت فيسكن لحده :

ومشيّدٍ داراً ليسكن داره ... سكن القبور وداره لم يَسْكُنِ (1)

وتكثر هذه الدعوة إلى الاعتبار في شعر الفقهاء كثرة واضحة ، ويلفت سابق كيف يجمّع الناس أموالهم ، فإذا هي تنقلب في قبضة الوارثين ، ويبنون القبور والقصور فإذا هم يذرونها عرضة التقوّض والانهيار ويمضون ، والنفس تهوى الملاذ وهي تعلم أنها فتنة ، إذ الموت يغدو عليها ويروح ، وقد تخطّف من قبل ملوكاً كثيراً غفلوا عن مصائرهم المحتومة ، فما لبثوا حتى بلغوها ، هكذا قضت عاد وتبع وثمود .. فهل ثمة مطمعٌ في بقاء ؟ إن امرأً سبقه إلى الموت هؤلاء كلّهم لوشيك الرحيل :

أموالُنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورُنا لخراب الدهر نبنيها
والنفسُ تكلف بالدنيا وقد علمت ... أنّ السلامة منها ترك ما فيها
فلا الإقامة تُنجي النفس من تَلَفٍ ... ولا الفرارُ من الأحداث ينجيها
وكلُّ نفسٍ لها زَوْرٌ يصبّحها ... من المنيّة يوماً أو يُمسّيها
أين الملوك التي عن خطبها غفلتْ ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها ؟
غُرّتْ زماناً بملك لا دوام له ... جهلاً كما غرّ نفساً من يمنّيها
وصبّحتْ قومَ عادٍ في ديارهمُ ... بمُقْطِعٍ يوم عادتهم عواديها
وتبّعاً وثمودُ الحِجْرِ غادرهم ... رَيْبُ المنون رميماً في مغانيها
فكيف يَبقى على الأحداث غابرُنا ... كأننا قد أظلّتْنا دواهيها (2)

٤ - الزهد والمواعظ والأخلاق:

كان الشعراء الفقهاء يحرصون ، وهم على طرُق الحكمة ، أن ينوّروها بأشعة

1) روضة العقلاء ٢٠٢ . 3) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٥١ وما بعدها

« الإرشاد النفسي » أو « الرياضة الروحية » كما قد نوّروها بالإيمان والتأمّل والعبر ، أو قل كانوا يهتدون بأضواء الإيمان في بنائهم الباطني وحياتهم الداخلية كما اهتدوا به في تدبّرهم العقلي وشؤونهم الفكرية ، وقد لمح جولدتسيهر بعض أمائر التشابه بين الزهد الإسلامي مع المسيحية فمضى يزعم تأثره بها واقتفاءه طريقتها ، وهو بذلك يخلط دونما تمييز ، بين أنواع الزهد التي عرفها المجتمع الإسلامي ، إذ كان فيه زهد إسلامي خالص غلب على جمهور العباد والنسّاك والفقهاء ، وسوف أقف عند خصائصه من خلال شعر الأخير بين فيه ، وكان ثمة زهد فاسد دخيل مثّله معتنقو المانوية ، وكان زهد ثالث انتشر في جماعة أقبلوا عليه بنوايا طيّبة ولم يكونوا على ثقافة فقهية كافية أن تميز لهم الصحيح من الشائب ، فدخل زهدهم بعض عناصر من غير الإسلام ، وأغلب الظن أن أبا العتاهية كان من هـــذه الجماعة ، غير أنّ النوعين الأخيرين من الزهد لم يكونا هما الغالبين .

وإذن فجولدتسيهر يعمّم الحالة الأخيرة التي لحظها على الذين لم تتهيأ لهم ثقافة دينية واعية من الزهاد ، ولم يسيروا على آثار الفقهاء المستبصرين ، فعلق بمنهجهم بعض شوائب أجنبية ، لكن هذا الصنف من الزهد قليل ، كما تقدم ، وأهم من ذلك أن ما علق به من آثار خارجية لم يكن في أسسه الأولى ولا خطوطه العريضة ، ولم يبلغ به يوماً أن يتخذ من دون الله أرباباً آلهة ، ولا أن يتخذ من دون محمد رسول الله أسوة هادية ، ويمكن القول إن تأثرهم كان في نبذهم الحياة نبذاً ابتعد - في بعض جوانبه - عن التصوّر الإسلامي للزّهادة ، أو سلك سبيلاً كان ثمّة ما هو خير منه وأقوم ، بعبارة أدقّ ، يقول الدكتور يوسف خليف : « لو كان (الزهد الاسلامي) قد تأثر بالرهبانية المسيحية على النحو الذي يصوّره جولدتسيهر لرأينا وجوهاً من الشبه بين الزهاد المسلمين والرهبان المسيحيين في أسلوب حياتهم ، ولكن الواقع ينكر ذلك ، فلم يعرف الزهاد المسلمون نظام الرهبانية المسيحي ، ولم يعرفوا حياة الأديرة والصوامع ، ولم يحرّموا على أنفسهم الزواج ، ولم يبتعدوا عن المشاركة في الحياة العامة التي يحياها الناس .. والذي نريد أن نصل إليه من هذا هو أن الزهد في الاسلام

١) العقيدة والشريعة في الاسلام ١٣١ .

لم يكن مسيحيّ النشأة أو النزعة ، وأن الزهاد المسلمين لم يكونوا رهباناً يقضون حياتهم في الأديرة والصوامع ، وإنما كان الزهد في الإسلام إسلامي النشأة والنزعة ، غاية ما في الأمر أن هؤلاء الزهاد المسلمين الذين عاشوا في بيئات مسيحية ، كالعراق والشام ومصر ، لم يستطيعوا أن يعيشوا بمعزل عن تيار الرهبانية المسيحية ، وإنما تأثروا بها ، لا ذلك التأثر الذي يصوّره جولدتسيهر ، ولكنه التأثر الذي ظهر في تلك المبالغات التعبدية التي لم يكن الصحابة يعرفونها ، والتي كان الصحابة ينكرونها عليهم ، وهو تأثر لا يجعلنا نسلك الزهد الإسلامي والرهبانية المسيحية في قرن واحد ، فالرهبانية المسيحية محاولة لإماتة النزعات الدنيوية في حين أن الزهد الاسلامي محاولة لتهذيب هذه النزعات . وفرق كبير بين المحاولتين في الوسيلة والغاية »[1].

ومن هنا كان الفقهاء لا يفتؤون يوجّهون نصائحهم تترى لإزالة كل شائبة دخيلة على الزهد ، ومن ذلك أن ابن المبارك نظر في بغداد إلى رجل عليه ثياب صوف لا تخالطها غيرها ، فقال : من هذا ؟ فقيل له : هذا أبو العتاهية الشاعر ، فكتب إليه :

أيها القارىء الذي لبس الصو ف وأضحى يُعَدُّ في العُبّادِ
الزم الثّغرَ والتعبّد فيه ليس بغدادُ موضعَ الزهّادِ
إنّ بغدادَ للملوكِ محلٌّ ومُناخٌ للقارىء الصيّاد[2]

وكان صاحب كتابي « الزهد » و « الجهاد » يقول لأبي العتاهية : إنك قد أصبت أحد شطري الزهد القويم ، وهو نبذ الدنيا ومطامعها ، وبقي عليك أن تستكمله بالعمل والدأب والسعي والجهاد .

ومن الحقّ أن هذه الثنائية ، نبذ الحياة من جهة ، والعمل الدؤوب من جهة أخرى ، هي أهمّ خصائص الزهد الإسلامي ، وهو ما عرف عن الفقهاء في حياتهم المعاشية والعلمية والعبادية ، وهو ما يبدو كذلك واضحاً وضوحاً تاماً في أشعارهم .

ومن يقرأ هذه الأشعار يجدها تستحثّ على العمل والسعي والأخذ بالأسباب ،

١) حياة الشعر في الكوفة ١٩٩ و ٢٠٠ . ٢) بهجة المجالس ٢/٦٤ .

ولكنها تلتفت، في الوقت نفسه، إلى أن المرء لن يصيب من وراء عمله إلا ما قد قسم له مولاه، وبذلك ينشط الإنسان في الكسب، ويخوض غمار الحياة، ويضرب في شعابها، من دون أن يجعل ذلك مسعاه ولا أكبر همّه، بل يبقى عفّاً عن متاع الفانية، مترفّعاً على حطامها ناعماً براحة البال، شادّ البصر إلى آخرته، متطلّع القلب إلى الله.

فأبو الأسود الدولي ينصح بالكدح المشفوع بالتوكّل المعمّم بالثقة والأمن والقناعة فيقول:

إذا كنتَ معنياً بأمرٍ تريده ... فما للمضاء والتوكّل من مِثْلِ
توكّلْ وحمّلْ أمرك اللهَ إنّما ... تُرادُ به آتيك فاقنعْ بذي الفضل[1]

ويؤكّد أبو الأسود لابنه، وقد انقطع عن العمل وطلب الرزق، أنّ أسباب المعيشة ليست في أن يتمنّى الإنسان ما يتمنى وهو قاعد خامل، وإنما عليه أن يعمل ويسعى، وأن يُلقي دلوه بين الدلاء وبذلك تعود إليه وهي تفيض فيضاً تارة، أو تعود بماء قليل معكّر بالطين تارة أخرى، ولكنّ الحالتين خير له من الكسل والقعود وأن يظنّ رزقه يصله دون سعي منه ولا جهاد في سبيله، فالله قد قسم الرزق لخلائقه حقاً، ولكن عليهم أن ينشطوا ليتبلّغوه وأخذه:

وما طلبُ المعيشة بالتمنّي ... ولكنْ ألْقِ دلوك في الدلاء
تجئْك بملئها يوماً، ويوماً ... تجيء بحمأة وقليل ماء
ولا تقعد على كسل التمنّي ... تُحيل على المقادر والقضاء
فإنّ مقادر الرحمن تجري ... بأرزاق العباد من السماء[2]

لا بدّ من السعي إذن حتى لا يكون الزاهد كلاً على أحد من الناس، ولكنّ ذلك السعي لن يقدّم من أمر القسمة المفروضة من الله شيئاً ولن يؤخّر، فلا بد أيضاً أن يعف عن المطامع فلا يذلّ لها، بل الفقر خيرٌ من غنىً منكوس

١) ديوانه ٢١٠. ٢) ديوانه ٢٤٤، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ١١٥/٧.

الكرامة أو مغلول السخاء، فليس المال مدار الأمر، إنما هو العفة والنبل والحرية، ولو صحب ذلك فقرٌ أو قِلّة، قال هارون بن عبدالله الزهري:

والرزقَ فاطلبه، على أنّه ... قيل له وقتٌ وآجالُ
وليس يبطىء عنك في وقته ... ولا له عن ذاك إعجال
فلا تقمْ عبداً على مَطْمع ... فربما أخلفكَ الحالُ
والفقرُ خيرٌ فاعلمنْ مِنْ غِنىً ... يكون فيه لك إذلالُ
والمال للمُكْثِر شَيْنٌ إذا ... لم يك منه إفضالُ
والحرّ خير حيث أمسى ولا ... يمنعه من ذاك إقلال[1]

إن الإنسان - مهما سعى - لن يفوز بغير نصيبه المقدّر، ولن يستطيع أن يحوز رزق الآخرين، سواء طمع فيه أو عفّ عنه، فعلام يرهق نفسه فيما لا تطيق، ويخسر دينه، ويشين سمعته؟ إنّ الغنى غنى النفس، وإنّ كثيراً من غير أولي السَّعة ليَسْمُون، بنفوسهم العالية، على الدنيا ومطامعها، وإن كثيراً من ذوي المتاد والوفرة ليُخْفون أنفساً جائعة طامعة شرهة، قال عروة بن أذينة:

وقد علمتُ وما الإسرافُ من خلقي ... أنّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
وأنّ حظّ امرىء غيري سيبلغه ... لا بدّ لا بدّ أن يحتازه دوني
فلن أكلف نفسي فوق طاقتها ... حرصاً أقيم به في مَعْطن الهُونِ
أبَيْتُ ذلك رأياً لستُ قاربَه ... ولا معرّضَه عرضي ولا ديني
فما امرؤٌ لم يُضِعْ ديناً ولا حَسَباً ... بفضل مالٍ وهي عرضاً بمغبون
كم من فقير غنيّ النفس تعرفه ... ومن غنيّ فقير النفس مسكين[2]

١) أخبار القضاة ٢٧٦/٣، وترتيب المدارك ٥١٨/١.
٢) شعر عروة ١٧٦ ومعطن الهون: موضع الذل، ومغبون: مخدوع وخاسر.

وعلى هدْي « الزهادة الاسلامية » في شعر الفقهاء نستطيع أن ندرك أشعارهم التي تناولت شطراً واحداً من هذه الزهادة ، وهو القناعة والعفة ، على نحو ما قال الشافعي :

أمتُّ مطامعي فأرحت نفسي ... فإن النفس ما طمعتْ تَهونُ
وأحييتُ القُنوعَ وكان ميْتاً ... ففي إحيائه عرضي مَصونُ
إذا طمعٌ يحلّ بقلب عبد ... علتْهُ مَهانةٌ وعلاه هُونُ (١)

وقال ابن المبارك :

لله دَرُّ القُنوع من خُلُق ... كم مِنْ وضيعٍ به قد ارتفعا
يضيق صدر الفتى بحاجته ... ومن تأسّى بدونه اتّسعا (٢)

وقال ابن المبارك أيضاً :

ومن البلاء وللبلاء علامة ... أن لا يُرى لك عن هواك نُزوعُ
العبدُ عبد النفس في شهواتها ... والحُرُّ يشبع مرّةً ويجوع (٣)

فمن الخطأ أن يُظنّ في هذه الأمثلة ، وأشباهها أنها تدعو إلى قناعة لا يصحبها عمل دائب وجهاد صادق ، وأكبر دليل على ذلك حياةُ كلٍّ من الشافعيّ وابن المبارك ، صاحبي الأبيات ، ومعروف كيف كان الامام الأوّل يجزىء ليله ثلاثة أجزاء ، فيكتب في أولها ، ويصلي في ثانيها ، وينام في ثالثها (٤) ، حتى إذا تنفس الصبح قعد في المسجد في حلقته بعد الصلاة ، فيجيئه أهل القرآن ، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه ، فإذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر ، فاذا ارتفع الضحى تفرّقوا وجاء

١) مناقب الشافعي للرازي ٢٠٠ وطبقات الشافعية للأسنوي ١٤/١ .
٢) بهجة المجالس ٣٠٤/٢ .
٣) بهجة المجالس ٣٠٦/٢ ، وتاريخ ابن عساكر (المعهد) ٦٠ (ابن المبارك) .
٤) انظر طبقات الشعراني ٥٠/١ .

أهل العربية والعروض والنحو والشعر ، فلا يزالون إلى قُرْب انتصاف النهار ، ثم ينصرف رضي الله عنه » (١) . ولم يكن ابن المبارك بأقلّ سعياً من الشافعي ، وقد يكفيه شهادةً أنه طاف ما وراء النهر وفارس والعراق والشام والحجاز واليمن ومصر ! وسوف يأتي ذلك عند الحديث عنه .

. . . .

وإلى جانب دعوة الفقهاء إلى الزهد في متاع الحياة الدنيا وعظوا مواعظ كثيرة أخرى ، منها الاستكثار من التقوى ، فهي خير زاد وأمضى عتاد ، ولن يستشعر حقيقتها إلا الذين ذاقت قلوبهم حلاوة طعمها من القوم المستبصرين ، قال سابق :

إنّ التقى خيرُ زادٍ أنت حاملُهُ ... والبِرّ أفضل شيء ناله بشرُ
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ... ولا البصير كأعمى ما له بصر (٢)

وهذه التقوى - إذا توالى حرص الإنسان عليها - أصبحت له عادة لا يلقى فيها عنتاً ولا مشقة ، قال النعمان بن بشير :

فلا تك صدّاداً عن القصد والهدى ... أصمّ إذا تدعى إلى الحقّ أصيدا
عليكم بعادات التقى واتّباعها ... وكلُّ امرىء جارٍ على ما تعوّدا (٣)

وقد مضى الفقهاء وهم في سبيل التقوى يَذْكرون الله ذكراً كثيراً ، ويعظون به ، لأن في الذكر - كما يقول سابق - إحياء للقلب فلا يكون ميتاً ولا قاسياً :

وقد يُنعش الذكرُ القلوب وإنما ... يكون حياةَ العود في الماء وابلُهْ
أرى النعمن لا ينمي إذا جفّ أصله ... وليس بباقٍ مَنْ أُبيحت أوائله (٤)

ويعود سابق إلى بيان أثر الذكر في الانسان في موضعين آخرين من شعره ، فيردّد في أوّلها إحياء الذكر للقلب فاذا بـــه ينضر ويطيب ، ويبيّن أن القلوب

١) معجم الأدباء ٣٠٤/١٢ . ٢) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٣٩ .
٣) شعر النعمان ٩٢ ، والأصيد : الذي يرفع رأسه كبراً ، ويريد المتكبر الذي لا يستجيب للحق . ٤) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٤٨ .

الفظة القاسية لن تحظى بهذه الحقيقة [1]، ويرى في الموضع الآخر أن ذكر الله إن تعمق النفس أثر تأثيراً قوياً في موقف صاحبها من الحياة، فيزول عنه الكلف بها وبملاذها، ويسكن قلبه من كل خفقة قلق أو سوء [2].

وكان من أثر التقوى دعوة الشعراء الفقهاء - في مواعظهم - إلى الثقة بالله والاعتماد عليه، فان الله كافٍ عباده، ومن قلة الثقه أن يظن أحد في الناس له غُنْية كافية، قال الحسين بن علي بن أبي طالب:

اغْنَ عن المخلوق بالخالقِ ... تَغْنَ عن الكاذب والصادق

من ظنّ أن الناس يُغنونه ... فليس بالرحمن بالواثق [3]

ومع التقوى وذكر الله والثقة به وعظ الفقهاء بطاعة الله، إذ بدون هذه الطاعة لا تكون تقوى ولا يثمر ذكر ولا تتمّ ثقة، وبهذه الطاعة رباح ومنجاة واستراحة، قال ابن المبارك:

أيضمن لي فتىً تركَ المعاصي ... وأرهنه الكفالةَ بالخلاص؟

أطاعَ اللهَ قومٌ فاستراحوا ... ولم يتجرّعوا غُصَصَ المعاصي [4]

وماذا يجني الانسان من المعاصي إلا الحرمان من الخيرات والابتعاد من رحمة الله وفضله؟ قال الشافعي:

شكوتُ إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم نُورٌ ... ونور الله لا يُؤتى لعاصي [5]

وكان من مواعظ الفقهاء إرشادهم إلى مجموعة من أساليب الوعظ نفسه، أو قل هديهم إلى ما يصلح اتخاذه «مناهج في التربية والنصيحة والتقويم»، وهي مناهج لم يبلغوها «بتحليل مخبري» ولا «وسيلة تجريبية» وإنما نفذوا إليها بأحاسيسهم الدقيقة ومشاعرهم القوية وعقولهم المستنيرة، فتناثرت خلال أشعارهم نثراً.

١) المصدر السابق ٣٤١.
٢) المصدر السابق ٣٤٥.
٣) المصدر السابق ٤٣٢.
٤) أدب الدنيا والدين ٨٨.
٥) المحدون من الشعراء ١٣٨ ووكيع هو وكيع بن الجراح الفقيه.

ومما عرض الشعراء الفقهاء من هذا الطراز من المواعظ ابتداء الناصح بتربية نفسه أولاً، والحرص عليها منذ نعومة الأظفار، وتحري التربة الصالحة لها، والافادة من تجارب الآخرين، ومراعاة التخصص في البحث، وتحرير الحقائق والمعلومات، والتأني في النصح، والتكرار، والاقلال من المزاح والجدل، والمناظرة في سكون، وإطالة الصمت، والاهتمام بالغايات.

فليس من الحكمة أن ينهى المرء غيره عن اشياء هو يعملها، بل من واجبه أن يتمثل ما يدعو إليه تمثلاً تاماً ليكون قدوة لهؤلاء الذين يدعوهم، يقول أبو الأسود الدؤلي:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مِثْلَهُ ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

ابدأ بنفسك وانهها عن غيّها ... فإذا انتهتْ عنه فأنت حكيم

فهناك يُقبل ما وعظتَ ويُقتدى ... بالعلم منك وينفع التعليم [1]

وينبغي - إلى جانب تمثل الواعظ مبادئه - الشروع في تربية الناشئة منذ نعومة أظفارهم وغضاضة عيدانهم، لأنهم في صغرهم يقبلون التعديل والتثقيف، والتربية والتأديب، «حسب المناهج المقررة» أما الذين شبّوا عن الطوق فكأنهم يشعرون بغير قليل من الحرج إذا هم استجابوا إلى ما يوجّهون إليه، ومثلهم في ذلك مثل الغصون، إن كانت طرية رطبة أمكن تعديلها إلى ما يراد، لكنها لن تلين وان تتعدّل إذا يبست، مهما بذل من أجل ذلك من جهد، قال سابق البربري:

قد ينفع الأدب الأبناء في صِغَرٍ ... وليس ينفعهم من بعده الأدبُ

إن الغصون إذا عدّلتها اعتدلتْ ... ولا يَلينُ ولو ليّنته الخشبُ [2]

وكأنما الصغر تربة صالحة أن تؤتي الخير وتحسن العطاء، وكان الفقهاء يتحرّون هذه التربة لا في الصغار بل أيضاً في الكبار، وهؤلاء في رأي الشافعي فريقان، فمنهم من يستجيب للحق ويذعن له، ومن الخير أن يفيض عليهم العلماء

١) ديوانه ٢٢٣.
٢) سابق البربري لعبدالله كنون ١٩.

من كنوزهم ، ومنهم من لا يزيده التعليم إلا جهالةً وضلالة ، فمن ضياع العلم أن يُراق في أعتاب هؤلاء القوم الذين لا يقيمون له وزناً :

سأكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي ... ولا أنثر الدرَّ النفيس على الغنمْ
فإنْ يسَّر الله الكريم بفضله ... ولاقيت أهلاً للعلوم وللحِكَمْ
بثثتُ مفيداً واستفدتُ ودادهم ... وإلا فمخزونٌ لديَّ ومكتمْ
فمن مَنَحَ الجهَّال علماً أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم[1]

ويعظ سابق أن يفيد الانسان من تجارب سابقيه وأن يعتبر بمن مضى من الصالحين ويسير على منهجهم في هجران الهوى والتعفف عن الدنيا ، فيقول :

ثم اقتدوا بالألى كانوا لكم غُرَراً ... وليس من أمَّةٍ إلاَّ لها غُرَرُ
متى تكونوا على منهاج أوَّلكم ... وتصبروا عن هوى الدنيا كما صبروا[2]

وينصح الامام الشافعي المتعلمين بالاختصاص فيما هو خير ، وأن يختاروا من الموضوعات أحسنها ، ذلك أن العلم خضمٌ لا يدرك له قرار :

ما حوى العلم جميعاً رجل ... لا ولو مارسَهُ ألفَ سنهْ
إنما العلم بعيدٌ غَوْرُه ... فخذوا من كل شيء أحسنه[3]

ويدعو أبو الأسود الدؤلي إلى التثبت من كل ما يقوله الانسان أو يسمعه ، وبذلك لا يخوض – إذا تحدَّث – فيما يكون فيه الندامة من بعد :

حقِّق القولَ إذا ما قلتَه ... واحذرنْ مخزاتِه في المجمعهْ[4]

١) حياة الحيوان ٢/٢٢٣ ، وحماسة الظرفاء ١/١٧٥ ، وهدية الأمم ٣٠ ، ويبدو أن الامام الشافعي يتأثر في أبياته قول عكرمة : إن لهذا العلم ثمناً . قيل : وما هو ؟ قال : أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه . انظر إحياء علوم الدين ١/١٨ .
٢) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٤٤ .
٣) ديوانه ٦٥ ، وقد نسبا في التمثيل والمحاضرة ١٦٥ إلى الامام علي .
٤) ديوانه ١٢٢ .

وكذلك حين يُنقل إليه وشاية لا ينبغي أن يسلِّم بها دون تحقيق ولا تثبُّت ، فليس بعيداً أن يكون هذا الذي نقل إليه الوشاية قد بيَّت أن يشي عنه كما وشى له ، ويجرحَ سمعته لدى الآخرين كما جرح سمعتهم عنده ، قال أبو الأسود :

لا تقبلنْ نميمةً بُلِّغتَها ... وتحفَّظنْ من الذي أنبا كها
إنَّ الذي أهدى إليك نميمةً ... سيمَّ عنك مثلها قد حاكها[1]

وقد دفع الفقهاء منهاجهم في التحقيق إلى التأني في التربية والتمهل في إقرارها في النفوس ، ومن خير ما يصوِّر ذلك أبيات الدؤلي تحكي صبره على صاحبه وإنْ زلَّ مرة أو مرَّات ، فهو يعامله معاملة حسنة ، ويرجو له أن يرتدَّ إلى المنهج القويم بعد أن يتبيَّن – مع الأيام – أخطاءه بنفسه :

أعود على المولى وإن زلَّ حِلْمُهُ ... بحلمي وكان العَوْدُ أبقى وأحمدا
وكنتُ إذا المولى بدا لي غِشُّه ... تجاوزت عنه وانتظرت به غدا
لتُحكمه الأيَّام أو لتردَّه ... عليَّ ولم أبسُطْ لساناً ولا يدا[2]

ومع التأني يكون دائماً التكرار ، وأشدُّ ما تحتاج إليه إذا أردت أن تنهى لجوحاً عن غيِّه فهذا لا ينفع معه نهي ولا زجر ، ولن يزيده ذلك إلا خصومة وجدلاً ، وخير وسيلة للتأثير فيه أن تُبدي معه بالرفق وتميد ، وتتزوَّد لذلك بالصبر والأناة ، فإذا بنفسه تلين وإذا هو يرعوي ويستقيم ، قال سابق :

إذا زجرْتَ لَجوجاً زدْتَهُ عَلَقاً ... ولجَّت النفس منه في تماديها
فمُدْ عليه إذا ما نفسُه جمحتْ ... باللين منك فإن اللين يَثْنيها[3]

ومما نصح به الفقهاء الاقلال من المزاح والجدل ، ومما احتفظت به المصادر في هذا الشأن أبيات لسمر بن كدام يعظ فيها ابنه وهي تجري على هذه الشاكلة :

١) نهاية الارب ٣/٢٩٥ . ٢) ديوانه ٢٤٦ .
٣) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٥٣ ، واللجوج كثير الصخب والخصومة ، وعلقاً : تعلقاً ؛ ويثنيها : يعطفها ويردها .

إني منحتُكَ يا كِدامُ نصيحتي فاسمعْ لقول أبٍ عليك شفيقِ
أما المزاحة والمراء فدعهما خُلُقان لا أرضاهما لصديقِ
إني بلوتُهما فلم أحمَدْهُما لمجاورٍ جاراً ولا لصديقِ (1)

ويؤكد أبو الأسود مضارّ الخصلة الثانية التي حذّر منها مسمر ، المراء ، فيذكر بما يعقب المجادلات من شرّ وندامة ، ويذمّ من يجاور السفهاء ويماكه في شيمتهم ، يقول :

فاتركْ محاورة السفيه فإنّها نَدَمٌ وغبٌ بعد ذاك وَخيمُ
وإذا جريتَ مع السّفيه كما جرى فكلاكما في جريه مذموم
وإذا عتبتَ على السّفيه ولمتَه في مثل ما تأتي فأنت ظلوم (2)

غير أن هذا الموقف من الاسراف في الجدل لا يعني أن الشعراء الفقهاء كانوا يرفضون المحاورة حيثما كانت ، فقد تستنارق بعض الحقائق على المتلقّين ، فلا بد من مناقشتهم فيها لازالة اللّبْس ، وتمفية الغموض ، وتمييز الخبيث من الطيّب ، إلا أنّ العالم الفطن والمتكلم الجامع يناقش في سَمْت وروية ، ويناقش في حلم ورزانة فلا يكون كمن يغلو في مجادلته ابتغاء الرياء المقيت ، ومن الخير للمسالم أن يتجنب هذا الذي لا يبغي الحقيقة ولا معرفتها ويجعل من إثارة الضجة العقيمة غاية ما بعدها غاية ، فيتنطّع ويتحذلق ، ويلجّ ويستكبر ، قال الشافعي :

إذا ما كنت ذا علم وفضل بما اختلف الأوائل والأواخرْ
فناظرْ من تناظر في سكون حليماً لا تلجّ ولا تكابر
يفيدك ما استفاد بلا امتنان من النُّكَت اللطيفة والنوادر
وإياك اللّجوجَ ومن يرائي بأني قد غُلبت ومن يفاخر

١) مختصر جامع بيان العلم ١٥٨ ، ومضاهاة أمثال كليلة ودمنه ٨٢ . ٢) ديوانه ٣٣ .

فإنّ الشرّ في جنبات هذا فميّزْ بالتقاطع والتدابر (1)

وخير من هذه اللّجاجة المقيمة في رأي أبي الأسود أن يقلّ المرء من كلامه بل يصمت صمتاً تاماً ولا يتخبط في شعاب معقّدة ربما قادته إلى الهلكة أو الضياع :

أطلِ الصمت إذا ما لم تُسَلْ إنّ في الصمت لأقوامٍ دعهْ
رب ماشٍ بحديث قاله لا يضرّ المرْءَ ألاّ يَسْمعه (2)

وقد اندفع الفقهاء يلوّحون دائماً بالغايات من الأعمال ، فلا تكون وسائلها كل شيء ، ولا تفتر عنها النظرات فتدنو وتضيق ، أو تنحرف وتضل ، فأبو حنيفة يوجّه المشتغلين بالعلم ليبتغوا به الآخرة وثواب الرحمة ، ولا يؤثروا على هذه الغاية ثواب الدنيا وعطاء البشر :

مَنْ طلب العلم للمَعادِ فاز بفضل من الرشادِ
فيا لخسران طالبيه لنيل فضل من العباد (3)

إن العلم وسيلة لا غاية ، وهو وسيلة ينبغي أن تهدي صاحبها إلى ما هو خير ، فيصلح قلبه وتطيب سيرته وتزكو أخلاقه ، فان لم يَنته إلى هذه الثمرة أو جرى في سبيل معكوس ، كان نقمة لا نعمة ، وضلالاً لا رشاداً ، قال الشافعي :

إذا لم يزدْ علمُ الفتى قلبه هدىً وسيرته عدلاً وأخلاقه حُسْنا
فبشِّرْهُ أنّ الله أولاه نقمة يساء بها مثل الذي عبد الوُثْنا (4)

. . .

وكان الفقهاء يزكّون الأنفس ، وهم في سبيل بنائها الداخلي ، بطائفة من الأخلاق المحمودة كالفضيلة وحبّ العلم والكرم والمعروف والوفاء والعفو .

١) ديوانه ٣٨ ، والأبيات الثلاثة الأول في مناقب الشافعي للرازي ٢٢٢
٢) ديوانه ١٠٣ . ٣) مفتاح السعادة ١/٣٧ .
٤) ديوانه ٦٠ والوثن : جمع وثن وهو الصنم .

فصالح الأخلاق طاقة دافعة إلى المبرّة والمحافظة على وشائج القربى، ومن طرق أبوابها فتح عليه منها خير جمّ وعطاء كثير، قال ابن المبارك:

إلى الله أشكو لا إلى الناس أنني ... أرى صالح الأخلاق لا استطيعها
أرى خُلّة في إخوة وعشيرة ... وذي رحم ما كنتُ ممن يضيعها
فلو طاوعتني بالمكارم قدرة ... لجاد عليها بالنّوال ربيعُها (١)

ومن أكرم الأخلاق حبّ العلم والمجاهدة في تحصيله، وقد مضى الشعراء الفقراء يزيّنونه في النفوس ويحببونه إلى القلوب، فهو أمارة خير وشرف، وكنز ثمين، وقرين وفيّ حميم، وقد يخون المالُ صاحبه، فيفلتُ من يده، لكن العلم يبقى في صدره لا يخاف عليه سرقة ولا ضياعاً، إنه ذخر لا يعدله درّ ولا ذهب نضار، قال أبو الأسود الدؤلي:

العلم زَيْنٌ وتشريف لصاحبه ... فاطلب - هُديتَ فنون العلم والادبا
العلم ذخر وكنز لا نفادَ له ... نعم القرينُ ونعم الخِدْنُ إن صحبا
قد يجمع المالَ شخص ثم يحرمه ... عمّا قليل فيلقى الذلّ والحربا
وجامع العلم مغبوط به أبداً ... فلا يحاذر منه الفوت والسلبا
يا جامع العلم نعم الذخرُ تجمعه ... لا تعدلنّ به درّاً ولا ذهبا (٢)

وكما زيّن أبو الأسود العلم ودعا إليه زيّن الجود وحلّل نفس القبّاض الكريم، فهو لا يحتاج إلى إطالة سؤال لتسيل أعطياته وهباته، بل يكفي لتدكيره، من أجره السائل حاجته، أن يلقاه بسلامه، فيبيت لزاماً عليه إقالة عثرته ويسرع في عطائه. وينال الحمد الجزل والثناء الجميل، ويجود بسخاء وإن بدت عليه قبل ذلك أحياناً بعض علائم من جفوة وعتاب. ويلتفت الشاعر بعد تصوير نفس

١) كتاب الورقة ١٦ والخلة: الصداقة، والنوال: العطاء.
٢) تهذيب ابن عساكر ١١٦/٧ والقرين والخدن: الصديق، والحرب: الهلاك ونسب البيتان الثالث والرابع إلى صالح بن عبدالقدوس، انظر محادثات الأدباء ٣٢/١.

الكريم إلى ذلك السائل المحتاج فيوصيه ألاّ يمدّ كفّ الضراعة ما لم يكن مضطراً أشدّ اضطرار، وخير له لو عاش عيشة شظف وتقشّف، من أن يريق ماء وجهه ويسأل الناس:

وإذا طلبتَ إلى كريم حاجة ... فلقاؤه يكفيك والتسليمُ
فإذا رآك مسلّماً ذكر الذي ... كلّمتَه فكأنّه ملزوم
ورأى عواقب حمد ذاك وذمّه ... المرء تبقى والعظام رميم
فارجُ الكريم وإنْ رأيت جفاءه ... والعتب منه، والكريمُ كريم
إن كنت مضطراً، وإلا فاتخذ ... نفقاً كأنّك خائف مهزوم
واتركه واحذرْ أن تمرّ ببابه ... دهراً، وعرضُك إن فعلتَ سليمُ (١)

وكانت خصلة الكرم تدفع إلى حثّ مستمر على بذل المعروف في كل الميادين، وتذكير المحسنين ألا يصدّوا عنه لما قد يرون من جحود لأيديهم وكفران لمعروفهم، فان الله لن يضيع أعمالهم أبداً، قال ابن المبارك:

يدُ المعروف غنمٌ حيث كانت ... تحمّلها شكورٌ أو كفورُ
ففي شكر الشكور لها جزاء ... وعند الله ما كفر الكفورُ (٢)

إن الحياة سوف تمضي مخيّباً حثيثاً، فعلام لا يقدّم الانسان لأخيه ما يقدر عليه من خير وعون؟ وإذا لم يفعل ذلك فهل أقلّ من ان يخفض له جناحه ويوطىء له كنفه؟ قال سابق:

يا مبتني الدار التي ... هو مسرع عنها الرحيلا

١) ديوانه ٢٣٥. ٢) حماسة الظرفاء ١٦٩/١ وبهجة المجالس ٣٠٧/١.

إن لم تُنِلْ خيراً أخا ك فكن له عبداً ذليلا [1]

والمعروف مكرمة باقية محمودة العاقبة ، وما ضاع عرف وإنْ أوليته حجراً ، كما يقول ابن المبارك ، ذلك أنْ ليس من شيم الأوفياء كفران النعمة ، وباذل الجميل حريٌّ أن يثاب بمثله ، ومن هنا قال عروة بن أذينة :

لا تكفرنَّ طوال عيشك نعمة لؤماً تجاحدها امرأً أولاكَها [2]

فمن اللؤم أن ينسى المرء فضل من أحسن إليه ، وقد أمعن الهذلي يدعو إلى الوفاء ليس للذين يقدّمون المعروف فحسب ، بل أيضاً لهؤلاء الأقدمين الذين ذاق أبوه من قبل معهم حلاوة الحياة ومرارتها :

أكرمْ صديقَ أبيك حيث لقيتَه
واحْبُ الكرامة مَنْ بدا فحباكها [3]

لكنَّ الإنسان قد تبدر منه بادرةُ إهمال وإفراط ، فيقصّر في وفاء أو غير وفاء ، وعندئذ ينبغي ـ في رأي الفقهاء ـ أن يسبر المرء أغوار صاحبه ليميز ما يأتي به من هفوات معتادة ، وما يصدر فيه عن نزعة باطنة خفية يشوبها حبُّ الأذى وضمور الاخلاص ، فأما إن كانت هفوات مألوفة فليس ثمة من صديق مُطَّرِد على الكمال ، و «كلُّ ابن آدم خطّاء» ، ومن الخير أن يعفو عنها دون حساب ولا عتاب ، وإلا بقي وحيداً فريداً ، قال سابق :

إذا ما كنتَ طالب كلَّ ذنب ولم تحلل أخاك عن العتابِ
تباعَدَ من تباعَدَ بعد قرب وصار بك الزمان إلى اجتنابِ [4]

وليس من الحكمة في شيء ألا يغفر امرؤٌ غلط غيره ، بل يمضي يحاسب ويعاقب ويبتر حبال المودّة ، ولا يقبل معذرة ، ولا يذر إليها سبباً ، قال أبو الأسود :

١) تهذيب ابن عساكر ٦/٤٠ .
٢) شعر عروة ٣٤٥ .
٣) ديوانه ١٩٨ ، وحباه : أعطاه .
٤) سابق البربري ٢٢ .

إذا أنتَ لم تعفُ عن صاحب أساء وعاقبته إنْ عثرْ
بقيتَ بلا صاحب فاحتمل وكن ذا قبول إذا ما اعتذر [1]

ذلك حين يكون الزلل هفوة هينة ، وأمّا إن انطوى الصديق على حبّ الأذيّة ، فلنْ أحداً لن يستمرّ على مودّته ، قال أبو الأسود :

فإني وجدتُ الحبَّ في الصدر ، والأذى
إذا اجتمعا لم يلبث الحبَّ يذهبُ [2]

. . . .

وعلى هذا النحو انكفأ الشعراء الفقهاء يطهّرون الأنفس والخبايا من خصال السوء ، والأخلاق المُرْدية لا الرافعة ، فحملوا على الانقياد وراء الشهوات الآثمة والفواحش المنكرة ، وذمّوا المنّ والكبْر والحسد والغيبة والرياء .

فقد حذر سابق أن ينصاع الانسان لشهواته ويستسلم لنفثاتها دون ضبط ولا مقاومة ، فإن سُكر اللذّة ساعة ، ثم وراءها ندم طويل وكآبة مستمرّة :

وتجنّب الشهوات واحـــذرْ أن تكون لها قتيلا
فلربَّ شهوة ساعة قد أورثتْ حزناً طويلا [3]

إن هذا المنغمس في لهوه الجاري إثر هواه لو عفّ وزكا وتجنّب الاثم وأحسن معاملة الناس ؛ إذن لنعّشوا هم كذلك وزكّوا وأحسنوا معاملته ، فكما يدين يدان ، أمّا إذا استحبّ أن يعتدي على أعراض القوم ويهتك حرماتهم ويفضح عوراتهم الوثيقة وبيوتهم العامرة فانه لن يضمن أن يُؤتى من حيث أجرم ، قال الشافعي :

عفّوا تعفّ نساؤكم في المُحْرَمِ وتجنّبوا ما لا يليقُ بمُسْلِمِ
إنَّ الزنى دينٌ فإن أقرضته كان الوفا من أهل بيتك فاعلم

١) ديوانه ٢٤١ .
٢) ديوانه ٢٤٤ .
٣) تهذيب ابن عساكر ٦/٤٠ .

يا هاتكاً حرم الرجال وقاطعاً سبل المودّة عشت غير مكرّم
لو كنت حرّاً من سلالة ماجد ما كنت هتّاكاً لحرمة مسلم
مَنْ يَزنِ يُزنَ به ولو بجداره إنْ كنتَ يا هذا لبيباً فاهم (١)

ومن الصفات الذميمة التي كرّهها الفقهاء في النفوس، كراهة الفواحش، ما يذهب وضاءة الكرم من المنّ المقيت، ولعروة بن أذينة مقطوعة يوصي فيها أولي الفضل ألا يذكروا صنائعهم - وإن عظُمت - بين يدي الذين قدّموها لهم، بل الخير أن يتظاهروا بتناسيها نسياناً تاماً حتى لا يشعر هؤلاء بأيّ حرج أو غضاضة، أما الذين يتبجّحون أمام ذوي الحاجات بما وهبوهم فإنهم يخمدون بهذا ما في القلوب لهم من مودّة وشكر لما أسدوه، فتتكدّر الصنيعة ويذهب فضلها، ويغيب عنهم أن الله هو الذي يجزي على المعروف خير الجزاء، ويشكره:

لا تتركنْ إنْ صنيعة سلفتْ منكَ وإنْ كنت لا تصغّرها
إلى امرىء أن تقولَ إنْ ذكرتْ عندك في الجدّ لست أذكرها
فإنّ إحياءها إماتتها وإنّ منّاً بها يُكدّرها
وإنْ تولّى امرؤٌ بشكر يدٍ فالله يجزي بها ويشكرها (٢)

ويهيب الامام الشافعي بذوي الحاجات ألا يمدّوا أكفّ السؤال - على إملاقهم - إلى الذين يتبعون أعطياتهم بالمنّ والأذى، وخير لهم أن يصبروا على شظف العيشة مع كرامة الأنفس من أن يتحمّلوا المنن التي تدمي القلوب وتقصدها قصد الرماح:

لا تحملنّ لمن يمنّ - من الأنام عليك مِنّهْ
واختر لنفسك حفظها واصبر فإن الصبر جُنّهْ

١) نتيجة الافكار ٨. ٢) شعر عروة ٣٣٣، والصنيعة: المعروف.

منن الرجال على القلو ب أشدّ من وقع الأسنة (١)

وكثيراً ما يرتبط المنّ بنزعة الكبْر ونظرة الاستعلاء، وقد بيّن ابن عتبة وبال ذلك وما يؤدي إليه من تنامي الاحقاد الذين ألفوه وألفهم، ولم يفرق بينهم إلا اعتراره بما أصاب من عرض الدنيا، وينصحه بأن يمس تراب الأرض امامه يذكر أنه منها خُلق وإليها يعود وأنّ مصير الناس إلى حساب وجزاء! وينعت هذه الخصلة بأنها شرّ الصفات:

فمسّا تراب الأرض منها خُلقتما وفيها المعادُ والمصير إلى الحشْر
ولا تأنفا أن تسألا وتسلّما فما حُشي الإنسانُ شرّاً من الكبْر (٢)

ومع الكبر يكون الحسد، فالمتفخ المتنفج لا يرضى لأحد أن يتنفس من النسائم التي يتمّ، ولا أن يحيا في مستواه الذي يحيا، ويضيق صدره وينقبض قلبه كلما نال غيره من الخير ما يوشك أن يدانيه به، فإنْ تقدمه اسودّت الدنيا في عينه، وكأنّ الأرض لا تسع من أهل الفضل سوى هذا الحسود الحاقد اللئيم، وكأنّ نعم الله ما فاضت منذ آدم على البشرية جمعاء، أولي الفضل منهم وذوي الحقد معاً، فغمرتهم بآلائها غمراً! ولأبي الأسود الدؤلي مقطوعة بديعة يتحدّث فيها عن حسد الحسّاد لمن سبقهم في السعي ومعاداتهم له، وليس مثل سابقيهم أولي الحظّ - في رأي الدؤلي - إلا كمثل الجبلة الحسناء يتألق وجهها، كلما تحدّثت، كالبدر المنير، غير أن ضرّاتها مع ذلك لا يشهدن لها إلا بدمامة الوجه وقبح الهيئة، وما كان وجهها بدميم ولا ذميم، لكنّه الحسد المرّ والحقد الأعمى، وكذلك تضيق صدور الحاسدين بمن أوتي نصيباً من الخير، ويكيدون له:

حسَدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقومُ أعداء له وخصومُ

١) أدب الدنيا والدين ١٨٨، وغرر الخصائص الواضحة ٢٥٤.
٢) مجالس ثعلب ١/١٤ والاغاني (دار الثقافة) ٩/١٤٠.

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً إنه لدميم
والوجهُ يشرق في الكلام كأنه بدرٌ منير والنساء نجوم
وترى اللبيب محسّداً لم يجترمْ شتمَ الرجال وعرضُه المشتوم
وكذاك مَنْ عظمتْ عليه نعمة حسّاده سيف عليه صَرومُ (١)

ويصوّر ابن المبارك كيف يعادي الحسود لمنْ «عظمت عليه نعمة» عداوة شديدة لا يرجى لها زوال، إذ تحول في قلبه عقدة نفسية ليس يقدر على حلها إلا الله، فيقول:

كلُّ المداوة قد تُرجى إماتتُها إلا عداوة من عاداك من حسدِ
فإنّ في القلب منها عُقدةً عقدتْ وليس يفتحها راقٍ إلى الأبدِ
إلا الإله فإنْ يرحمْ تُحلّ به وإنْ أباه فلا ترجوه من أحد (٢)

ومن طبائع الحاسدين أنهم ينفثون بالغيبة والتجريح كلَّ ما في صدورهم من غليان الحقد وسعير المنافسة المؤرّقة، ويحكي الشافعي قصة حسود له لا يتورّع عن اغتيابه كلّما سنحت له إلى ذلك وسيلة، فاذا حضر سال لسانه بمديحه والثناء عليه، لكن الامام الجليل يعفّ عنه ولا يهبط إلى دَركته:

وذي حسد يغتابني حيثُ لا يرى مكاني ويُثني صالحاً حيث أسمعُ
تورّعت ان أغتابه من ورائه وما هو إذ يغتابني متورّع (٣)

ويبين ابن المبارك تجنّبه لهذه المذمّة التي نهى عنها الله سبحانه في محكم كتابه فيقول:

١) ديوانه ٢٣٢.
٢) العقد الفريد ٣٢١/٢. ونسب البيت الاول الى الامام الشافعي. انظر مناقب البيهقي ٧٤/٢. ٣) مناقب الشافعي للبيهقي ٧٥/٢.

وغيبة الناس، إنّ غيبتهم حرّمها ذو الجلالِ في الكُتُب (١)

وكما كان للحسد آصرة تدنيه إلى الغيبة كان ثمة آصرة أخرى تشدّه إلى الرياء، وقد عاب الفقهاء ذلك وهذا، ونهى الشافعي أن يختال الانسان ويتراءى في مشيته مزهوّاً مستكبراً، فما هو إلا قليل حتى يندثر تحت التراب الذي يخطر اليوم من فوقه:

ولا تمشِيَنّ في مَنْكِب الأرض فاخراً
فممّا قليل يحتويك ترابُها (٢)

وعلى هذا النحو تناثر في شعر الفقهاء ذمّ الجهل (٣) والغدر (٤) واليأس (٥) والبخل (٦) وغير ذلك من الصفات التي تُصدئ النفس وتميت القلب.

. . . . .

ونخلص ممّا تقدّم إلى أن الزهد الذي عُرف في أوساط الفقهاء، وهو الذي غلب على المجتمع الاسلامي على امتداده أيضاً، كان زهداً لم يشُبْه زيغٌ ولا ميل ولا انحراف، وكان الفقهاء يقفون بالمرصاد لكل شائبة دخيلة، وكان يقوم زهدهم على قناعة عاملة وجِدٍّ راض.

وكان إلى جانب الزهد مواعظ شعرية تدعو الى الاستزادة من التقوى وذكر الله والثقة به وطاعته وتقدّم نصائح صالحة لأن تتخذ مناهج في التربية والتقويم.

ولقد زكّوا الضمائر بمجموعة من الأخلاق الرشيدة كالفضيلة وحب العلم والكرم والمعروف والوفاء، وحذّروا من الشهوات الآثمة والمن والكبر والحسد والغيبة والرياء...

١) تاريخ ابن عساكر (المعهد) ج ٦ (ابن المبارك)، وهو يشير إلى قوله تعالى: «ولا يغتب بعضكم بعضاً، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه؟ واتقوا الله، ان الله تواب رحيم» (سورة الحجرات ١٢).
٢) مختصر تذكرة القرطبي ١٦. ٣) ديوان أبي الأسود ١٤٩.
٤) المصدر السابق ١٨٣. ٥) المصدر السابق ٢٢٧.
٦) المصدر السابق ٢٣٦.

ويمكن القول إنّ هذه الحكم التي تستنير على نحو واضح في كل جوانبها بهَدْي التنزيل كانت من المقدّمات الأولى للفلسفة في المجتمع الاسلامي، إلا أنها مقدّمات صافية عذبة لم تُثقل بغموض المصطلحات ولا تعقّدها، فأشعارهم في الايمان والتأمل والعِبَر إنْ هي إلا جانب من «التفكير»، وآثارهم في الاستبصار بالعقيدة أو في الزهد والمواعظ والأخلاق «ارتياضٌ» نفسي ومجاهدة روحية، والتفكير والارتياض هما أساس تلك الفلسفة التي مثّلها فيما بعد الامام الفذّ حجة الاسلام محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ للهجرة.

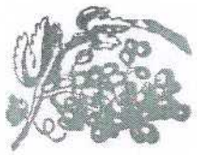

الفصل الثاني

الغزل

١ - غزل عروة بن أذينة :

يتلو الحكمةَ في شعر الفقهاء الغزل، وهو أمر قد يدعو إلى الاستغراب إذا لم يتنبّه الباحثون إلى ملاحظة دقيقة في هذا المضمار، هي أنّ ثلثي الغزل عند الفقهاء أو ما يزيد على ثلثيه لعروة بن أذينة وحده، وواضح أن من يغفل هذه الملاحظة تضطرب أمامه الصورة وتختلّ أبعادها ويحسب أنّ للشعراء الفقهاء في هذا المجال سبقاً فرّطاً، على حين لم يكد طائفة منهم يمسّونه أيّ مسّ، بينما طرقه فريق آخر من زاوية خاصّة هي الغزل بأزواجهم أمهات بنيهم. ويمكن القول إن هذا الموضوع لم يكن ليزيد على سائر الأغراض - سوى الحكمة - لولا كثرة ما لعروة فيه.

ومن يقرأ في شعر ابن أذينة، وهو أغزر الفقهاء نتاجاً باقياً، يجد أكثر من ثلث ديوانه يختصّ بالغزل، وأمّ امرأة تُردّد اسمها هي سُعدى، وكان الأمين محمد الزاكي قد لحظ أن لعروة ولدَيْن وبنات، فتساءل هل تزوج عروة سعدى؟ وهل هؤلاء بنوه منها؟ وفي الإجابة على ذلك قال: «نعم؛ إذ ليس مقبولاً أن يكون غزله في غير زوجته»(١). فإن كانت سعدى زوجته حقاً دخل نسيبه في الغزل بشريكات العمر، وعندئذ لا يثير الحديث عن «بنات حوّاء» عقيبَ «الحكمة» أيّ استغراب.

ولو كانت حياة عروة بين أيدينا لوضحت المشكلة، غير أن المصادر لم تحتفظ من أخباره إلا بشذرات متفرّقة لا تقيم لها صورة ولا تبيّن سيرة. وليس بعيداً أن يكون عروة تزوج سعدى، بعد أن أحبّها ومال إليها، غير أن القضية ظنية، على حدّ تعبير الفقهاء، سواء في موضوعها وفي طريقة استنباطها، ولو أن الظنّ أمر

١) شعر عروة بن أذينة للأمين الزاكي ٣٠.

مألوف في بعض جوانب العلوم النظرية ويمكن أن نطمئن إلى هذا الاستدلال ، اقتران عروة بسعدى ، ما دامت حياة الشاعر على هذا النحو من الغموض ، فإن كشف التاريخ غير ذلك تبناه ، وإن أثبته فهو « ما كنا نبتغ » .

على ان عروة لم يذكر سعدى أو سعاد وحدها في شعره ، وإنما ذكر أيضاً ليلى ورقاش وأم عاصم وسلمى ، وهو أمر يلقي بعض الشحب حول قصته مع سعدى وزواجه منها .

أما ليلى فقد ذكرها في بيت واحد يستنكر فيه على نفسه أن يجمع النقيضين معاً : حب ليلى وهجرانها ، وبعد ذلك الهجران لها ظلماً كظلم لقمان بن عاد لابنته صُحْر عندما قتلها دون ذنب منها إلا أنها من بنات حواء اللاتي افتقدن ثقته جميعاً :

أتجمعُ نهياماً بليلى إذا نأتْ
وهجرانها ظلماً كما ظُلمتْ صُحْرُ (١)

وأغلب الظنّ أن ليلى هي سعدى نفسها ، وليس مستبعداً أن يكون بعد زواجه منها فارقها - لأسباب ما - ثم ندم ، على نحو ما صنع ابن عتبة غيبّ فراقة عثمة.

وأمر رقاش (٢) بسيط ، لأنّ معنى الرقش النقش والتزيين ، فهو ، في الغالب على الحُسبان ، تدليل لسعدى بأنها ، مع جمالها ، تزدان وتتأنق .

وكذلك شأنه مع أم عاصم (٣) وسلمى (٤) ، فقد تكون الأولى كنية سعدى ، وقد تكون سلمى رمزاً لها ، أطلقه يوم كان جادّاً في خطبتها ، وكأنه استبشر باسم سلمى خيراً ، وتفاءل أنها سوف تسالمه وتستجيب لخطبته ، وقد يؤيّد هذا أنه يذكرها بعد حديثه عن سعدى التي حالت مودّتها - كما يقول - بعد وداد حسن ، ويذكر في حديثه أيضاً حساداً ووشاة ، ومن الراجح أن ذلك كان في إحدى مراحل خطبته التي عانى منها كثيراً ، يقول في هذه القصيدة :

١) شعر عروة بتحقيق الدكتور يحيي الجبوري ٣٣٢ .
٢) انظر شعر عروة ١٧٤ .
٣) شعر عروة ٢٢٩ .
٤) شعر عروة ١٩٦ .

إن تُمْسِ سعدى وقد حالتْ مودّتها
وأقصرتْ لانصراف أيّ إقصارِ

فقد غَنِينا زماناً ودّنا حسَنٌ
على مَعاريض من لوم وإهجارِ

ومن مَقال وُشاةٍ حاسدينَ لها
أن يدركوا عندنا فيها بإكثار

كنا إذا ما زرتُ في الودّ نُعْتِبها
وآيةُ الصُّرْم ألا يُعتب الزاري

إذ لذّة العيش لم تذهب بشاشتها
وإذ بنا عهد سلمى غير ختّار

حتى متى لا مُبينُ اليأس يصرمني
ولا تقضّى من اللذات أوطاري ؟

مَنْ ضيّع السرّ يوماً أو أشادَ به
فقد منعت من الواشين أسراري (١)

لما ليلى ورقاش وأم عاصم وسلمى إلا سعدى نفسها ، استعار لها هذه الأسماء تستّراً وتغييّة حتى لا يذيع أمره وتطير قصة حبه ، ويرفض أهلها إنكاحها ممن شهر بها على مألوف القوم ، وربما دلّ على ذلك أن عروة - على شدّة هيامه بسعدى - لم يتردّد له اسم بين العشاق من أمثال جميل بثينة ومجنون ليلى وكثير عزة وعبلان ميّة ، وكأنما صرف بتمويهه أنظار الرقباء .

على أنّ هذه الأسماء ، أو بعض هذه الأسماء ، قد تكون خيالية ذكرها عروة في مطالع قصائده التي استفتحها بالغزل التقليدي توطئة لأغراضه ، على عادة كثير من الشعراء ، وقد يدخل في هذا الغزل التقليدي طائفة من شعره في سعدى نفسها ، ولا سيّما الذي نظمه ، بعد اقترانه بها ، في تذكّر ماضيه معها ، وقد يؤيّد منحاه التقليدي هذا أنه كان ينظم بعض مقطوعاته استجابة لرغبات المتنين ، من ذلك ما ذكره أبو الفرج من أنه « مرّ ان عائشة المنتشي بعروة بن أذينة ، فقال له : قل لي أبياتاً هزجاً أغنّي فيها ، فقال له : اجلس ، فجلس ، فقال :

١) شعر عروة ١٩٤ ، وحالت : تغيرت ، وأقصرت : كفت ، وغنينا : عشنا ، والمعاريض : التورية في الكلام بالشيء عن الشيء ، والاهجار : الافحاش في النطق ، وزرت : عتبت ، وختار : غدار

سليمى أجمعتْ بينا فأين تقولها أينا
وقد قالت لأتراب لها زُهْرٍ تلاقينا
تعالين فقد طابَ لنا العيش تعالَيْنا
وغاب البَرِم الليـــــلة والعيْن فلا عيْنا
فأقبلْن إليها مســـــرعاتٍ يتهادَيْنا
إلى مثل مهاةِ الرَّمْـــــل تكسو المجلس الزَّينا
تمنَّينَ مناهنَّ فكنَّا ما تمنينا [1]

ويروي صاحب الأغاني أن ابن عائشة ضحك من البيت الأخير، وعلل ضحكه بهرَم عروة الذي يقول مثل هذا القول [2]، وواضح أن عروة نظم الأبيات لابن عائشة نظماً تقليدياً لا واقع له، إذ كان في ذلك الحين فقيهاً كبيراً، من شيوخ الإمام مالك، ومن هنا كان غزله التقليدي هذا مدعاة ضحك ابن عائشة.

ومن غزله الذي يمكن ضمّه إلى هذا النوع التقليدي مطلع قصيدته الثانية، إذ يقف بالديار، يسألها عن أحبّته الذين قضى معهم أياماً حافلة بالهناءة والسرور، لكنهم لم يلبثوا أن ظعنوا تاركين في نفسه الألم والحسرة × وعبرةً شاملة، هي أن ليس في هذه الحياة من نعمة باقية، فها هوذا قد أُبدل بالوصال قطيعة، ثم ينتقل إلى الفخر، وهو موضوع القصيدة، فيستغرق سائر أبياتها:

يا ديار الحيّ بالأجْعةْ لم تُكلِّمْ سائلاً كلِمةْ
أين من كنا نُسَرّ به فيكِ والأهواء مُلْتئمة
إذْ حَرَى شِعْبُ المَشاش لنا ومَصيفٌ تَلْعَةُ الرَّخَمة
ومن البطحاء قد نزلوا دارَ زيد فوقها العَجَمَة
ثمَّ حلُّوا حَلَّةً لهمُ بطنَ وادٍ قُنَّةَ السَّلَمة
وانْتَحَوْا بالفَرْش تتبعهم مُنَّةٌ من نفسك السَّقِمة
إنَّ للدنيا وزهرتها نِعْمةً لا بدَّ منصرمة
وكفى حزناً لنا ولهم بعد وَصْلٍ عاقَهُ الشَّأمَة
إنْ تبدَّلنا بهم بدلاً ليس من أبدالهمْ بِلمة
فكأني يوم بَيْنِهمُ جَسَدٌ ليست له نَسَمة
لا بَديعٌ صُرْمُ غانيةٍ أصبحتْ بالصرم مُعْتزِمة
إننا قومٌ ذوو حسب عامر منا وذو الخَدَمة.. [1]

وسواء كان عروة يرمز بهذه الأسماء إلى سعدى أو كان يذكرهن في مطالع قصائده تمهيداً لأغراضه فيها؛ فإنه ما يبدو من أشعاره أنه منذ رأى سعدى شغف بها وصار الأمل في الاقتران بها لا يغادره أيناً حلّ، ويعدّ ابن أدينة في جملة الشعراء المذربين الذين يتسامون على المآثم ويبذلون في منالها الجهد الثقيل.

فهو يتعمّد تعمّداً ألا تخلو من ذكرها قصيدة، ويسعى أن يجعل خير أشعاره فيها، ذلك أن سعدى نزلت من قلبه منزلاً لم تبلغه امرأة من العالين:

ومن حبِّ سعدى لا أقول قصيدة أرشّحُها إلا لسُعْدى شبابُها
لها مَهَلٌ من وُدِّنا ومحلّة من القلب لم تُحلَلْ عليها شعابُها [2]

لقد أضرمت سعدى بين حناياه ناراً ليس يطفئها ماء ولا يخمدها سواها:

---

١) و ٢) الأغاني (الهيئة المصرية) ١٨/٣٢٧. وهزجاً: مرنمة مطربة، ولا يقصد البحر المعروف لأن الأبيات من مجزوء الوافر؛ انظر الشطر الثاني من مطلع الابيات. والبرم: الضجر السؤوم.

١) شعر عروة ٩٥، والأجعة وشعب المشاش وتلعة الرخمة وقنة السلمة: مواضع، وحرى: ناحية، والبطحاء: السيل الواسع، والعجمة: النخلة، والفرش: صغار الابل، والمنة: القوة.
٢) شعر عروة ٢٧٠.

إذا وجدتُ أُوارَ الحبّ في كبدي
عمَدْتُ نحو سقاء القوم أبتردُ

هبني بردْتُ ببرد الماء ظاهرَه
فمن لنار على الأحشاء تتقدُ [1]

إن سعدى أملُه وهواه ولن يصدّه عنها لوم اللائمين ولا عذل العاذلين ، ولن يزيده ذلك إلا حباً لها وهياماً بها ، فقد شجر بفتنة عينيها وحسن عنقهـا وظرف محيّاها ودقة أنفها وطراوة كفلها فبات عليلاً سقيماً لا يرجه منها ابتعـاد ، ولا يشفي غليله منها اقتراب :

أيام سعدى هوى نفسي ونيقتها
مَنْ لام زينتها عندي بتزيين

للظبية البِكْرِ عيناها وتلْعتُها
في حسن مبتسم منها وعرنين

تنوء منها إذا قامت بمُردفةٍ
كأنها الفرّ من أفناء معرون

لا بُعْدُ سعدى مُريحي من جوى سقمٍ
يوماً ولا قُربها إنْ حُمّ يشفيني [2]

ويبدو أن عروة ، وقد تمكّن منه حبّ سعدى ، جاء يطلبها إلى أبيها ، بعد أن بذل في كتم حبه ما بذل ، ويبدو أيضاً أن الوشاة سعوا من جانبهم ليكشفوا ما كتمه ويحبطوا خطته [3] ، فلم يوافق وليّها على مصاهرته بادي الرأي ، فكان ذلك ضربة قاصمة لعروة جعلته يتصوّر مستقبله أسود قاتمـاً ، ونصبت له أشباحاً غامضة من اليأس والحرمان :

١) شعر عروة ٣١٦ ، وانظر هامش ٣١٧ ، وأوار الحب : حرارته .
٢) شعر عروة ١١٣ ، ونيقة النفس : ما تطلبه ، وتلعتها : عنقها ، وعرنين الانف : أوله ، والفر : البيض ، والافناء جمع فنا وهو الكثيب من الرمل ، ومعرون : موضع ، والجوى : شدة الوجد ، وحم : قدر .
٣) انظر حديثه عن الوشاة والحساد . شعر عروة ١١٥ و ١٣٩ و ١٤٨ و ١٤٦ و ١٩٥ .

ألا لن تعودَ الدهرَ خُلّةُ بيننا
ولكنْ إيابُ القارظين إيابُها [1]

وعلى توالي الأيام كان اليأس يخفت ويتلاشى ، ويعود الأمل إلى نفسه ، ويتقدّم إلى أهلها يخطبها مرة ثانية ، وكأنهم استجابوا - أخيراً - لإصراره ، فتحققت أمنيته فيها ، وعاش ينعم بفتاة أحلامه ، وقضى معها سحابة عمره حتى ابيضّ رأسه ، وذاق معها حلو الحياة ومرّها ، وتجاوز عما لقيه من أهلها في البداية من زاجر وقسوة وعـداوة :

علقتك ناشئاً حتى
رأيتُ الرأسَ مبيضّا

على يُسْر وإعسار
وفَيْضِ نوالكم فيضا

ألا أحببْ بأرضٍ كنـ
ـتِ تحتلّينها أرضا

وأهلُك حبّذا ما هم
وإنْ أبدوا لي البُغْضا [2]

وأغلب الظن أن عروة لم يستقرّ في مسيرته العلمية والاختصاص في الفقه إلا بعد فترة من شبابه ، وبعبارة أخرى بعد انقضاء مرحلة قلقه بقيرانه من سعدى ، وعندئذ اطمأنت نفسه ، وطرق أبواب العلم ، ففتحت له على مصاريعها ، وعدا من كبار علماء المدينة ، وتتلمذ له مالك بن أنس [3] .

على أن ما يلفت النظر في شعر ابن أذينة أنه يتحدّث عن فراق سعدى له بعد أن خضب الشيب رأسه فنفرت منه وقطعت حبال مودّتها ، وكانت من قبل متينة محكمة ، يقول في بعض قصائده :

رأتْ وضح الشيب في لِمّتي
فهاجَ تقضّي أوطارها

فجُنّتْ من الشيب واسترجعت
وانفرط فوق إنفارها

مباعدةً بعد أزمانها
بملحاء ريم وأمهارها

١) شعر عروة ٢٦٠ ، وإياب القارظين : يريد الذين لا يعودون .
٢) شعر عروة ٣٣٧ .
٣) سمط اللآلي ١٣٦ .

فبتّتْ قوى الحبل مصبوبة على نَقْضها بعد إمرارها [1]

وواضح انها لم تقطع حبالها وحدها، بل صحبت معها أبناءها وبناتها أو امهارها على حد تعبيره، ويعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى في قصيدته :

أهاجتكَ دارُ الحيِّ وَحْشاً جَنابُها
أبتْ لم تكلِّمْنا وعيَّ جوابُها [2]

فيقول :

إذا اقتربتْ سعدى لججتَ بهجرها
وإنْ تغتربْ يوماً يَرُعْكَ اغترابُها
ففي أيِّ هذا راحةٌ لك عندها سواء لعمري نأيُها واقترابُها
كفى حزناً ألاّ تزال مَريرةً
شَطونٌ بها نَهْوي يَصيح غرابُها ...
ولكن أتى من دونها كلمُ العِدى ورَجْمُ الظنون جَوْرُها ومُصابُها
فأمستْ وقد جَذَّتْ قوى الحبل بغتةً
وهرَّتْ وكانت لا تهرُّ كلابها [3]

وقد كان يمكن أن يُعدّ هذا الشعر مما قاله في سعدى زمن خطبته لها، عندما كان يصدمه الرفض الحاسم من أهلها فيظنّ أن ليس ثمة إليها سبيل، إلا أن

١) شعر عروة ٢١٥، ووضح الشيب : بياضه، واللمة : الشعر يجاوز شحمة الأذن، واسترجعت : قالت : « إنا لله وإنا إليه راجعون » وذلك عند المصيبة خاصة، والملحة : بياض يخالطه سواد، والريح : الظبي الخالص البياض، والمهر : ولد الفرس، استعارة لنتاج الظبية، وامرار الحبل : احكام فتله ٢) شعر عروة ٢٥٨. والجناب : الفناء.

٣) شعر عروة ٢٦٥، والمريرة : العزيمة، وشطون : بعيدة.

الشاعر يعرض هذا الفراق في قصيدتين يذكر فيهما أنه قطع مرحلة الشباب واكتظّ الشيب في رأسه، وهنا تقوم أمام الباحث عدة احتمالات :

الأول ان عروة أحبّ سعدى في أوّل عمره فخطبها إلى أهلها فردّوه رداً قاطعاً ترك أثره في نفسه وشعره معاً، ثم حاول أن يتناسى سعدى وقصّتها، وجاهد نفسه لتثوب إلى ذلك، فتمّ له بعض ما حاول، وبقي في « لا شعوره » من حبها بعض آخر، وهذا ما لا آخذ به ما دمت ركنت إلى زواجه منها.

والثاني أن شعره في الفراق تزداد لما كان يعانيه في اثناء تلقيه قرارات الرفض من أهلها، وهو تزداد ربما استرسل فيه مع وساوس خياله فأضاف أشياء لم تكن وقعت من قبل.

والثالث أن ما قاله في ذلك تقليد شعري محض لا يدلّ على أنه حدث حقاً، وبذلك يسلك في طراز المطالع التمهيدية التي أشرت إلى بعض منها.

والرابع أن عروة، لأسباب شتى، فارق سعدى، ثم ندم، غير أن فراقه لها كان فراقاً « رَجْعياً »، فلما نأى كلٌّ منهما عن صاحبه تذكّر سالف حياته الطويلة معه، وما لبث الصفاء ان عاد إلى نفسيهما وغمرهما، فلان عيشه بسعداء ثانية، وعمرت بها القباب. ومن المستبعد عن عروة الذي تحمّل من أجلها العذاب والصبر ألا يعتذر اليها إن وقعت منه جفوة أو قسوة في بعض الأحيان، أو لا يعفو عمّا قد يبدر منها من سهو أو خطأ أو نسيان، غير ان شعره، كما لم يفصّل قصّة زواجه، سكت عن هذه القضية، فاستُنبطت هذه كما استنبطت تلك، وربما تحدّث عن بعض علاقاته فيما ضاع له من شعر، وقد أشار الرواة الى هذا الضياع [1].

٢ - النسيب بالازواج :

ويؤيد ما ذهبنا إليه من أن عروة إنما كان يتجه في غزله إلى سعدى، خيطيه المفضّلة في شبابه وزوجه المثالية فيما بعد، أنّ كثرة ما بأيدينا من غزل الفقهاء لهذه الفترة إنما كان في شريكات أعمارهم، فالنمر بن بشير يذكر زوجه أم

١) انظر شعر عروة ٢٦٩، اذ أشار راوي مرثيته لعامر بن حزة الى أنها أكثر ما قاله عنها.

عبدالله [1] في قصيدتين من شعره إحداهما تعبر عن حزنه كلما فارقها ، والمظنون أنه كان يضطر في بعض أسفاره من اجل وظائفه التي شغلها في الكوفة ودمشق واليمن وحمص أن يسافر وحده تاركاً وراءه زوجه واولاده ، فيحن إليهم ويشتاق إلى لقائهم ، وفي هذه القصيدة يرسم لزوجه أم عبدالله صورة بديعة ، فهي كغزال كان ينعم في وادٍ معشب تكسوه أزاهير الحَوْذان الحمراء ، وتلتفُّ أشجاره الكثيفة فوق الرَّوابي ، ولكن بعض الصيادين يبلغون الوادي ، فيُذعر الغزال ، ويحاول ان يتوارى ، وبعد أن يرسم لامرأته هذه الصورة يصرّح بحبه العميق لها ، فهو يفديها ويسعى دائماً إلى وصالها ، ولا يفتأ يحرص عليها ويضع لها العوذ والرُّقى :

إذا ما أمُّ عبد اللـــــه لم تحلُلْ بواديهِ
ولم تُمْسِ قريباً هيَّـــــج الحزنُ دواعيه
غزال راعه القُنَّـا ص تُحميه صياصيه
بجوٍّ ناعم الحَوْذا نِ ملتفّ روابيه
فبحتَ اليوم بالأمر الـــــذي قد كنت تخفيه
وما زلت أفديّه وأُدْنيه وأرقيه
وأسعى في هواه أ بداً حتى ألاقيه [2]

وفي القصيدة الثانية يدعو النعمان لزوجه بالسُّقيا ، ويذكر نأيها ، وإخلاقَ وُدّها ، ويصرح بأنه ليس كمَنْ يبني على الهون بيته ، وأنه عزيز عليه أن يلام أو يهان ، وكأن الشاعر يمزج بين نظام القصيدة التقليدية ، وبين ما قد يقع بين كل زوجين من « سوء تفاهم » في بعض الأحيان ، وبذلك يبلغ غايته دون أن يصرّح بها صراحة ، فهو يستعرض « سوء التفاهم » الذي أراد معالجته في قصيدته واضعاً

١) انظر شعر النعمان ٥٢ . ٢) شعر النعمان ١٦٢ وما بعدها ، ودواعيه أسبابه ، وراعه : افزعه ، والقناص : الصيادون من القنص وهو الصيد ، والصياصي : القلاع والحصون ، والجو : المنخفض من الأرض ، والحوذان : نبت له زهرة حمراء في أصله صفرة ، وأرقيه : من الرقية وهي العوذة.

الحقيقة إلى جانب الخيال ، في مزيج لا يخفى على أم عبدالله أنهُ منصرفٌ يُراد [1]

وممن تنزلوا بأزواجهم أبو الأسود الدؤلي ، وكان اتخذ غير واحدة من النساء ، ولكن « أم عوف » امتازت من سواها بالوفاء الصادق ، والبر الجميل ، فعرف لها ذلك ، وأثابها بوفائها وبرها حباً لا تزيده الأيام إلا نضارة وبهاء :

أبى القلبُ إلا أم عوف وحبَّها
عجوزاً ، ومن يُحْبب عجوزاً يُفَنَّدِ
كَحَقِّ اليماني قد تقادم عهدُه
ورُقْمَتُهُ ما شئتَ في العين واليد [2]

فهو لا يلتفت إلى عذل الذين يعيبون حُبه لعجوز ، وما مثلُ أم عوف إلا كمثل البُرْد اليماني الموشى ، يبقى - ولو أتت عليه سنون - بهيَّ المرأى ، ليّن الوبرة .

وممن وقف عزله على زوجه القاضي شريح بن الحارث الكندي ، وكانت امرأته « زينب » من تميم ، وكان يحبها حباً جماً ، ويجزيها على طاعتها ، وحسن إخلاصها خيراً وإعجاباً ، وكان للقاضي في حيّه جار لا يزال يضرب امرأته ، فقال شريح :

رأيت رجالاً يضربون نساءهمْ فشلَّتْ يميني يوم أضرب زينبا
أأضربها في غير جُرم أتتْ به إليّ ، فما عذري إذا كنت مذنبا؟
فزينب شمس والنساء كواكب إذا طلعت لم تُبْقِ منهن كوكبا
فتاة تزين الحُلْيَ إنْ هي حُلّيَتْ كأن بفيها المسكَ خالط عَنْبَا [3]

١) انظر القصيدة العاشرة في ديوانه ١١٧ وما بعدها .
٢) ديوانه ١٤٥ ، والسحق : البالي ، واليماني : الثوب المصنوع في اليمن .
٣) الأغاني (الهيئة) ١٧/٢٢٣ ، والعقد الفريد ٥ / ٢٩٠ ، و ٦ / ٩٤ ، ووفيات ٢ / ١٦٨ ، والعنبر : العسل .

وممن أولعوا بشريكة حياتهم عبيدالله بن عبدالله بن عتبة ، وكان من فقهاء المدينة السبعة ، وقد شغفته عثمة زوجه حباً ، فمضى يصوّر ذلك الحب في نحو قوله :

صَدَعْتِ القلبَ ثم ذررْتِ فيه هواكِ فليَ والتأمَ الفطور
وأنفذَ جارحاكِ سوادَ قلبي فأنتِ عليَّ ما عشنا أمير [1]

فهو يكنّ لها من الحب أضعاف ما يظهر ، وقد نفذ حبها إلى صميم قلبه ، فهزه هزات عنيفة ، ما بلغتها هزات أخرى ، واقصدته سهام جمالها ، فانقلب لا يعصي لها أمراً .

وكان الإمام الشافعي تزوج امرأة قرشية ، وكان يمازحها فيقول :

ومن البلية أن تحبَّ فلا يحبُّك من تحبّه
ويصدّ عنك بوجهه وتُلِحّ أنت فلا تنبّه [2]

٣ ـ العفة في غزل الفقهاء :

قد تسهم ظاهرة التغزل بالزوجة في تفسير السمة الغالبة على نسيب الفقهاء ، وهي العفة والنقاء والارتفاع على الوصف الحسيّ ، والمواقف المثيرة ، وقد رأينا فيما تقدم حرص عروة بن أذينة على سعدى ورده الوشاة ، وحنينه إلى أيام الوصال ، وحبّه الطاغي ، وحزن النعمان لفراق زوجه أم عبدالله ، وولعَ الدولي بامرأته ام عوف وبرّ شريح بزينب شريكة عمره ، وتغلغل حب عثمة في قلب زوجها ابن عتبة ، ومنادمة الإمام الشافعي لامرأته القرشية .

وتكثر هذه المعاني التي تمتاز بالعفة والتسامي في غزل الفقهاء كثرة واضحة ، ويصوّر لنا النعمان بكاءه لفراق « أم الحويرث » ، ولا ندري إن كانت كنية زوجته الثانية

١) الأغاني (الثقافة) ١٤٧/٩ ، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٠ ، والجوارح : أعضاء الانسان التي تكتسب . ٢) وفيات الأعيان ٣٠٨/٣ ، وطبقات الشافعية للسبكي ١٦٣ ، والمحدون من الشعراء ١٤١ . والوافي ١٧١/٢ ، ومعجم الأدباء ٣٠٨/١٧ ونسبت بعض هذه المصادر البيت الأول الى الشافعي ، والثاني الى زوجه ، وأغلب الظن انهما معاً له ولكنها كانت تردد البيت الثاني رواية ، والعب في الزيارة أن تكون كل أسبوع .

نائلة بنت عمّار الكلبية ، أو امرأة خيالية يرمز بها إلى إحدى زوجتيه ام عبد الله او نائلة ، ونراه ـ مع بكائه ـ يذكر كيف تمكن الوشاة أن يبلغوا مآربهم في إفساد ذات بينهما ، يقول :

إذا ذُكِرَتْ أمُّ الحويرث أخضلَتْ
دموعي على السِّرْبال أربعةً سَكْبا
وكنا كماء المين والعينُ لا ترى لواشٍ بغى بعض الهوى بيننا إربا
فأمسى الوشاة غيّروا وُدّ بيننا فلا صِلَةٌ ترعى لدي ولا قُربا
جرى بيننا سَعْيُ الوشاة فأصبحت
كأني ـ ولم أذنبْ ـ جنيتُ لها ذنبا [1]

ويعود النعمان إلى الحديث عن بكائه في مقطوعة أخرى ، فينزف الدمع السخي لتذكّره أحبته ، ويصيبه السقم والأرق والحنين ، ومن الراجح أنه ـ عندما عُيّن والياً على اليمن تسلم وظيفته بعيداً عن إحدى زوجتيه ، فقال هذه الأبيات :

أمِنْ أن ذكرت ديارَ الحبيب عاد لعينيك تَسْكابُها
فبتّ العميد ونام الخلي واعتادَ نفسك إطرابُها
إذا ما دمشقُ قبيل الصبا ح غُلِّق دونك أبوابُها
وأمستْ ومن دونها رائسٌ فأيّان من بُعْدُ تنتابها [2]

وعلى نحو ما أصاب النعمان من اثر الفراق ، بل يفوق ما أصابه يصوّر سوار ابن عبدالله المنبري كيف براه الحب بُرْياً ، فذاب عن عظامه كل لحم وشحم ،

١) شعر النعمان ١٣٥ ، أخضلت الدموع السربال : بلته ، والسربال : القميص ، والارب : الحاجة . ٢) شعر النعمان ١٣٧ ، والعميد : الذي هده العشق وأضناه ، والخلي : الخالي من الهم ، والاطراب : كالطرب ، خفة تصيب الانسان لشدة حزن أو سرور ، ورائس : اسم جبل وبئر .

فغدت عرضة للانحطام، وفُرِّغ منها لبُّها، فصارت كأنها القوارير تصفر فيها الريح، وما كان ذلك لولا هيامه الغالب، وخوفه من الفراق، وهو خوف إذا عنَّ ذكره ارتعدت مفاصله، وارتعشت اضلاعه، إنَّ جسمه قد فني أو كاد، فما يستر بقيته النحيلة الضئيلة إلا الثياب:

سَلَبْتِ عظامي لحمَها فتركتِها ... عواريَ مما نالها تتكسَّرُ
وأخليتِ منها مخَّها فكأنها ... قوارير في أجوافها الريح تصفر
إذا سمعتْ ذكر الفراق تراعدتْ ... مفاصلُها خوفاً لما تتنظر
خذي بيدي ثم ارفعي الثوب تنظري ... بُلِيْ جسدي لكنَّني أتستَّر[1]

ولأبي يحيى هارون بن عبدالله الزهري أبيات يحن فيها إلى ديار أحبته، وكان هارون حجازياً، غير أنه - على عادة كثير من الفقهاء في عصره - رحل الى بلدان كثيرة ثم استقر به التطواف قاضياً لمصر، ولكنْ بقي - طوال غربته - يحمل بين جوانحه حنيناً طاغياً إلى الحجاز، ومن كان يسكن الحجاز ممن يهتف قلبه بحبهم، ويشتاق رؤيتهم، ويعتريه لبعدهم الشحوب والكآبة، بل البكاء الشديد:

هل الشوقُ إلا أن يحنَّ غريبُ ... وأن يستطيل العهدَ وهو قريب
أرى الشوق يدعوني إلى من أودّه ... وللشوق داع مسمع ومجيب
سقى الله أكناف المدينة إنه ... يحلُّ بها شخصٌ إليَّ حبيب
وإني وإن شطَّت بي الدار عنهمُ ... إليهم لمشتاق الفؤاد طروب
وقائلةٍ ما بال جسمك شاحباً ... وأهونُ ما بي أن يكون شحوب
فقلت لها في الصدر مني حرارة ... تقطّع أنفاسي لها وتذوب

١) تاريخ بغداد ٢١١/٩، وأخبار القضاة ٢٧٩/٣.

إذا ما تذكرْتُ الحجازَ وأهلَه ... فللعين من فيض الدموع غروب[1]

ومما يلاحظ في غزل الفقهاء حتى نهاية العصر العباسي الأول خلُوُّه من نزعة شاذة فاشزة اختصت بها عصابة المجان من امثال والبة بن الحباب ومطيع بن إياس وأبي نواس، وأعني الغزل بالذكر، غير أني وقفت على بضعة أبيات تنسب إلى يحيى ابن أكثم قاضي القضاة لعهد المأمون، وهي ابيات تصور ابنَ أكثم يعشق كاتبه ابن زبدان مرة[2]، ويهيم بابني مَسْعدة مرة أخرى[3]، ويقول فيهم ابياتاً صريحة لا تخلو من فحش ومجون، ولست أتردد في رفض نسبة الأبيات إليه، ولا ارتاب أيَّ ارتياب ان يكون أعداء يحيى من متعصبي المعتزلة او خصومه السياسيين وغير السياسيين نسبوها إليه كذباً وافتراء، للنَّيْل من سُمْعته ومحاولة تنحيته عن مركزه الهامّ في الدولة، فقد كان يحيى بن اكثم فقيهاً سنياً لم يعتنق - على رفعة منصبه - الاعتزال، ولست استبعد ان يكون المتعصبون من اهل هـذا المذهب نسبوا تلك الأبيات إلى قاضي القضاة السنيّ، لعلهم يفوزون بمنصبه لآخر منهم، فيبسطون عليه سلطانهم، ويدبرون الفتنة التي ما كان يخطر لهم ببال أنما هي سراب خلاّب، والباحث إذ ينفي هذه الأبيات عن ابن أكثم فإنما يعتمد روايات ثبتت عن طائفة من كبار الفقهاء الذين كانوا يعاصرونه، وهي روايات تنفي التهمة من اصلها، فقد ذُكر ليلةً يحيى بن أكثم بحضرة احمد بن المُعذَّل (وهو من كبار الفقهاء المالكية ممن عاصروا يحيى) فقال بعض القوم: ذاك صاحب غِلْمان، قال، فستَرَ أحمد وجهه بثوبه، وقال: «سبحانك هذا بهتان عظيم»[4]، وكذلك «ذُكرت هـذه التهمة لأحمد بن حنبل رضي الله عنه»، فقال: «سبحان الله! مَنْ يقول هذا؟ وأنكر ذلك إنكاراً شديداً»[5]، وكأنما يريد ان يوجّه العيون إلى مصدر القول المُريب، ولعلنا لاحظنا في الرواية قبلها كيف تسند التهمة إلى «بعض القوم»، وهم - في أغلب الظن - ممن كانوا يروّجونها للغاية التي ذكرنا، أو كانوا يرددونها دون أن يتحرّوا أهي حق

١) ترتيب المدارك ٥١٨/١، وأخبار القضاة ٢٧٤/٣.
٢) انظر اربعة أبيات في ذلك في أخبار القضاة ١٦٤/٢.
٣) انظر ثلاثة أبيات فيها: وفيات ٢٠٢/٥.
٤) أخبار القضاة ١٦٥/٢.
٥) وفيات الأعيان ٢٠١/٥.

أم بهتان ؟ ودون ان يدركوا أبعاد ما تهدف إليه ، فما كانت هذه التهمة لتصدق على ابن أكثم الذي وصفه ابو الفضل بن حجر بأنه « فقيه صدوق ، روى عنه الترمذي وغيره ... سمع من ابن المبارك وهو صغير ، وعظّمه احمد (ابن حنبل) »[1] .

. . . . .

وإذن فقلنا غزل الفقهاء حتى نهاية العصر العباسي الأول هما من نصيب عروة ابن أذينة وحده ، وأكثر ما وجدنا لهم من هذا الغرض يسلك في الغزل بالزوجة ، ويمدّ في الشعر العفيف الذي ينأى عن الوصف الحسي وتصوير المواقف المثيرة ، ويمعن في الحديث عن أثر الحب وتغلغله في النفس ، وما يصحبه من ذرف الدموع ، وخوف الفراق ، والحرص البالغ على القرب والوصال ، والحنين الجارف إلى من تهفو إليهم القلوب ، وتتلفت إلى ديارهم العيون ، وبيان ما يقوم به الوشاة وأولو المآرب من إفساد لذات البين ، وسعي حثيث دائب في التهجير والتفريق ... وقد خلا شعر الفقهاء ، لهذه الفترة ، من التغزّل بالمذكّر خلوّاً تامّاً .

١) لسان الميزان ٦/٧٦٠ ، ومن القضاة المعاصرين الذين أنكروا هذه التهمة سليمان محمد ثابت في كتابه : « طرائف عن القضاة » ص ٩٠ (طبع سنة ١٩٥٢ ، في مكتبة النهضة المصرية) .

الفصل الثالث

الفخر

١ - قيم قديمة :

يلي النسيب في شعر الفقهاء الافتخار ، وعلى نحو ما رأينا تلي الغزل من نصيب عروة بن أذينة تواجه الأمر نفسه في الفخر ، فإن تلثيه أيضاً له وحده ؛ فعروة أعزر الشعراء الفقهاء قصائد باقيات في أيدينا ، ومن يقرأ تلك القصائد يجدها تتفرّق ثلاثة أجزاء على الغزل والفخر وموضوعات مختلفة . على انه لا بدّ في دراسة هذا الغرض عنده من التنبّه إلى ما كان يعانيه من أزمات نفسية عنيفة عندما كانت سعدى ، أو اهل سعدى بعبارة أدقّ ، يصدّونه عنها وعن خطبتها ، فتراكم أمام عينيه أشباح قاتمة من الهموم الثقيلة ، وتطفئ كل بصيص من الأمل في القرب منها ، غير أن تلك الأشباح كانت ما تلبث حتى تشبّ في صدره ثورة ثائرة ، إذ تأخذه عزّته القديمة فيسترسل في ذكر مآثره وشمائله ، وكأنما كان يريد أن يؤكّد انه اهل إذا خطب أن يُعطى ، وإذا طلب الوصال ألاّ يردّ .

وكان - وهو في هذه النابة - يؤازر مآثره وشمائله بما كان لقبيلته في ماضيها من أمجاد ، وفي كثرة قصائده ، بل كل قصائده التي يفخر فيها ، نرى حديثه عن فتاة أحلامه يسبق ذلك الفخر ، ولهذا يُسلك غير قليل من شعره فيه فيما نظمه قبل أن يتفقه ، زمن سعيه الحثيث إلى سعدى ، وربما كان ذلك من أسباب العصبية القبلية التي تتردّد في قريضه ، وإنْ كنت لا أعني انّ كل اشعاره التي تعلو فيها نبرة العصبية قالها في تلك الفترة ، إذ من الواضح أنّ بعضها الذي يتحدّث فيه عن شبابه المنصرم وصباه الفائت[1] إنما قاله بأخرة من حياته بعد أن استقرّ وتفقّه .

وعلى الرغم من أنّ كثرة شعره في الفخر لم يكن في العصبية ، وإنما يعني

١) انظر شعر عروة ١٢٥ وما بعدها ، و ٢١٣ وما بعدها .

في التيار الاسلامي ، فانّ ما خاض فيه من هـذا المجال ، سواء كان قبل تفقهه أم بعده ، يفتح باباً قد أمر الاسلام ، وأكّد أوامره ، أن يُمَزّق بمُحْكَم السدود لئلا يعوّق رسالته إلى « العالمين » « كافّة » ، فسمّى رسول الله ﷺ كلّ عصبية ضيّقة من دون ذلك « دعوى أهل الجاهلية »[1] وقال : « دعوها فإنها خبيثة »[2] .

وفي الحقيقة ان الشعراء الفقهاء قد برئوا من العصبية القديمة براءة تامة ، فلم أجد لها أيّ صدىً في أشعارهم ، سوى ما تقدّم من أمر عروة ، وبضعة أبيات للنعمان بن بشير يعتز فيها بانتساب عشيرته إلى قَيْلة أم الأوس والخزرج[3] ، وإلى بعض الآباء القحطانيين[4] .

أما عروة بن أذينة ، وكان عِداده في كنانة من قبائل العرب الشمالية ، فقد مضى يفخرُ بعشيرته الأقربين كنانة . وما تفرّع منها من أشال بني مالك وعبد مناة ابني كنانة ، وبني بكر بن عبد مَناة ، وقريش بن النضر بن كنانة ، فيقول :

وإني لمن جرثومة تلتقي الحصى ... عليها ومن أنساب بكر لُبابها
ومن مالك آل القَلَنْسَس فيهمُ ... لنا سِرُّ أعراق كريم نِصابُها
وعبد مَناةَ الأكثرون لعزّهم ... بوادرُ يُخشى حَدُّها وذُبابُها
عرانينُ تنْميها كنانةُ نُصْرةً ... نِصابُ قُريش في الأُروم نصابها[5]

وهو لا يفخر بكنانة وفروعها فحسب بل ايضاً بأجداده الأقدمين ، ومعروف أن عرب الشمال ينحدرون من معدّ بن عدنان ، ونرى عروة ينسب إليه السادة الكرماء المقدّمين :

وكلُّ قَرْمٍ مَعَدِّيِّ الأروم لنا ... منه المقدّم مِنْ عِزٍّ وأخطارِ[6]

وكان من أولاد معدٍ نزارُ أبو مضر وربيعة ، وكانوا – كما يقول عروة –

١) و ٢) التجريد الصريح ٤٩/٢ .
٣) شعر النعمان ٨٠ . ٤) شعر النعمان ١٠٢ .
٥) شعر عروة ٢٧٧ ، وذبابها : طرفها ، وعرانين القوم : سادتهم ، ونصرة : قريباً ، والأروم : الأصول . ٦) شعر عروة ٢٠٨ ، والقرم : السيد الكريم .

بحوراً تزخر بالفضل والمَنَعة ، وقد عرف لهم الناس ذلك وأقرّوه :

وقيسٌ وحيّا نزارٍ معاً ... بحورٌ تجيش بتيّارها
أبَرّتْ على الناس أيّامُهم ... فهم عارفون بإبرارها
تُقِرُّ القبائل من طَوْلهم ... بفضل فما بعد إقرارها؟[1]

ويريد من حي نزار ربيعة ومضر ، ويريد من قيسٍ قيسَ عَيْلان ، ونعدّ هي وخِنْدِف أكبر الأفخاذ المضرية جميعاً ، وقد ذكرها في عدّة مواضع من شعره من مثل قوله :

تَلقى ذُرى خِندفٍ دُوْني وتغضب لي
إذا غضبت بنو قيس بن عَيْلانا[2]

وعلى هذا النحو يذكر الأصل الباثر الذي انعطفت منه كنانة ، وهو خزيمة ابن مُدْرِكة :

في عُصبةٍ من بني خزيمة تَنْـ ... ـمي العارَ لا يُرْتجى تَظَلُّمها
موسرُها ذو نَديٍّ يُعاشُ به ... وكالغنيّ السَّرِيّ مُعْدِمُها[3]

فهو يفخر ببني خزيمة أولي القومة والمنعة والشرف ، الذين أوتوا الفضل والجود ، فغنيّهم يُنشىء المجالس الحافلة ، وفقيرهم يبذل ما ملك بذل الأثرياء المالكين .

ولعلّنا لاحظنا أن عروة – وهو يفخر بنسبه العدناني – لا يزيد على اعتزازه بعراقة محتدهم وشدّة بأسهم وسعة فضلهم ، دون أن يبلغ حدّ شعراء العصر الجاهلي من المباهاة بمجالس الخمر والقيان وتصوير النزوات الفتّاكة وما يكون فيها من قتل ونهب وبطش ، وإن لم يكن يخلو شعره من وصف لمثل تلك النزوات ، كأنّ يقول في بعض حروب عرب الشمال مع اليمنيين :

١) شعر عروة ٢٢٧ ، وتجيش : تزخر وتمد ، وأبرت : علت ، والطول : الفضل .
٢) شعر عروة ١٣١ ، وخندف بنت حلوان زوج إلياس بن مضر ، وقد نسب اليها بنوها .
٣) شعر عروة ٩٠ ، والندي : المجلس .

وعلى شَعْبٍ هَبَطْنَ بنا أهْلَ شَعْبٍ خُطَّةً أضَمَهْ
غارةٌ أردتْ نساءَهُمُ في طَحونِ الوِرْدِ مُلْتَهِمَهْ
ربما منهم مُنَعَّمَةٌ سافِرٌ ليست بمُلْتَثِمَهْ
غُودِرتْ تَعْلى الملوكَ كما غودرت في المَعْطِنِ الحَطَمَهْ
لم تُعَظِّمْهُمْ أسِنَّتُنا إذ لهمْ من فوقهم عظمَهْ
وكأنَّ المُلْكَ بينهمُ إذ لقونا طاحَ عن أُمَمَهْ (١)

وعروة يصوّر غزوة شنّها أجداده المدفنيون على أهل « شعب » باليمن ، وهي غزوة أحكمت خطتها ودبّرت تدبيراً ظهر نجاحه عندما انتصروا على اعدائهم انتصاراً ماحقاً ، وأفنوهم فناء ، وجعلت نسوة الهالكين يبكينهم ناعلات حائرات لا يملكن أن يفعلن شيئاً ، ويذكر كيف تقوّض المُلْك اليماني منذ أوّل المعركة من غير ان يكون له من القوّة ما يعصمه ولو إلى حين .

على أنّ عروة قلّما صوّر مثل هذا الفتك الطاغي ، هو حقاً يصف عدة معارك خلال شعره ، إلا أنها معارك ليس في وصفها مضاضة ، لأنها في جملتها استعراض لقوة قبائله وبأسهم ، وسوف أقف على بعض هذه المعارك عند الحديث عن القيم الإسلامية في الافتخار .

ونخلص من هذا إلى أن النزعة القديمة في فخر عروة لم تبلغ درجة الاعتزاز بمجالس الخمر والمقامرة والقيان وما شاكل ذلك مما عرف في شعر الجاهلية ، وقد انحصرت هذه النزعة لديه بالعصبية القبلية ، وكانت أميل إلى استعراض « القوّات المسلّحة » ، والحديث عن مواهبها التي سبقت بها العشائر الأخرى ، وكانت بفضلها خيار اهل الجاهلية الأولى .

١) شعر عروة ١٠٤ ، وشعب : جبل باليمن ، وأضمة : غاضبة مهلكة ، والطحون : الكتيبة ، والمعطن : مبرك الابل عند الماء ، والحطمة : الدابة المتهدمة لطول العمر ، وأمة : قرب .

٢ - قيم قديمة مستمرّة :

وإذا كان عروة قد انفرد بالعصبية القديمة من دون الشعراء الفقهاء فإنه شركهم في فخرهم الإسلامي ، وبدلّ الاستقراء الدقيق لما بقي له في هذا الشأن على أن كثرة فخره تسلك فيه .

والنموذج الأول من الفخر الإسلامي يشيد بمآثر قد عرفها الناس من قديم ، واستمرت في المجتمع الإسلامي من دون أن تحرّمها نصوص القرآن الكريم او الحديث النبوي ، ولعل من الممكن أن يضمّ إلى هذا اللون من القيم الفخر بالنفس الكريمة المترفعة ، أو بالمواهب المختلفة كالقوّة والبلاغة والسخاء وحسن الوفاء والمعاملة الحكيمة وقرض الشعر ، ولست أعني ان الدين الحنيف لم ينوّه هذه الموضوعات بأشعة من عنده لم تكن تعهد فيها من قبل ، وإنما أعني انهم لم يعكسوا تلك الأشعة على قيمهم ويكرّم فيها بجلاء ووضوح ، ومن جهة أخرى فإن تلك القيم لم يستنكرها نص شرعيّ ، فهي إذن أدنى إلى ما يسمّى في أصول الفقه بالعُرْف ، وبهذا تعدّ إسلامية .

وأوّل ما نقرأ من هذا الفخر بيتان للنعمان بن بشير يتحدث فيهما عن عفة نفسه وترفّعه أن يطمع بالدراريّ والأحفاد ؛ إذ ليست الميسّرة في النسل الكثير ولو انحدر من اصهار لئام :

فلو أنّ نفسي طاوعتني لأصبحت لها حَفَدٌ مما يُعَدُّ كثيرُ
ولكنّها نفسٌ عليّ كريمةٌ عيوفٌ لإصهار اللئام قَذورُ (١)

ولأبي الأسود مقطوعة يتحدّث فيها عن جليل مواهبه ورحب ذراعه ، يقول في تضاعيفها :

وما ولدتْ أمّي من القوم عاجزاً
ولا كان ريشي من ذُنابى ولا لَغْبِ
ولا كنتُ فَقْعاً نابتاً بقَرارة ولكنني آوي إلى عَطَنٍ رحْبِ (٢)

١) شعر النعمان ١٠٢ ، والعيوف : الكاره .
٢) ديوانه ١٣١ ، والذنابى : ذنب الطائر ، واللغب : الريش الفاسد ، والفقع : الرخوة من =

وكثيراً تلقانا في شعر الفقهاء مثل هذا الاعتزاز بالمآثر المحمودة من المجتمع ، ولعروة بن أذينة ابيات يعتدّ فيها بصبره في البلاء ومجابهته الهموم بقوة العزم وأيد الحزم ، ويفخر بكثرة ترحاله وإحباطه ما يحاك له من مكائد ماكرة ، ويفخر ايضاً بلاغته وبراعة حججه وسخائه في بذل المعروف وإثابته الكريم حسن الوفاء ، واللئيم رد حقده عليه ، ويذكر شاعريته وما تبدعه من قصائد محكمة غريبة الكَلِم :

إني امرؤٌ أقْري الهمومَ صَرامةً
وأقوتُ شحمَ ذُرى المَطيِّ رِحالَها

ولربَّ حيلة حازم ذي هُوَّةٍ يَسَّرتُها ، ولَحازمٌ ما احتالَها

ومقالةٍ في مَوْطِنٍ ذي مَأْقِطٍ
طبَّقتُ مَفْصِلَها ومِرْتُ عيالَها

ولرُبَّ حُجَّةِ خَصْمٍ سوءٍ ظالمٍ حَنِقٍ عليَّ منحتُه إبْطالَها

فرَجعتُهُ قد عاد بعد تَخَمُّطٍ يَقْلي المُشاغبةَ التي أجرى لها

ولرُبَّ عُرْفٍ قد بذلت وخطّة أسهلتُ حَزْنَ طريقها اسهالَها

ومكارمٍ سَمْحٍ بذلتُ كرامةً يوماً له وقفيّةً ما سالَها

ولرُبَّ قافية تكاد حَذَوْتُها تلقى بخير سائلاً مَنْ قالَها

أرسلتُها مِثلَ الشِّهاب غريبةً لا تستطيع رواتُها إرسالَها (٢)

وكما عدّ ابن أذينة في جملة محامده الشعر ؛ عدّه كذلك الامام الشافعي ،

= الكمأة ، ورحب العطن : كثير المال واسع الرزق رحب الذراع ، والعطن في الأصل مبرك الابل حوض الحوض ومربض الغنم حول الماء . ١) شعر عروة ١٦٨ ، والهوة : الوهدة العميقة ، والمأقط : موضع الحرب أو المضيق في الحرب ، وطبقت مفصلها : أي أصبته ، ويريد اصاب الحجة ، ومرت عيالها : جادلتهم ، والتخمط : التغضب والتكبر ، وواقية : عطية ، والنكل : القيد ، ونكالها : عبرة لها ، وحذوتها : ابتها

وذكر اقتداره على قرض أحسنه ، وأشار إلى منزلة الشعر العالية :

عندي يواقيتُ القريض ودُرُّه وعليَّ إكليل الكلام وتاجُهُ

تَرْبى على روض الربا أزهارُه ويرفّ في نادي الندى دِيباجُه (١)

فهو يمتلك ناصية الشعر البديع ، بل يلغ في هذا المضمار مداه الأقصى فيتغنى به في كل روضة نضيرة ومجلس عامر .

وواضح أن المفاخر السابقة فردية خاصة ، وقد كان إلى جانبها مفاخر الجماعة الأدنين الذين يحفّون بهم من كل جانب ، فالنعمان بن بشير يشهد لقومه بالشجاعة والحلم والكرم فيقول :

إذا الموتُ أدْلفَ ذِئْفانَهُ وكانت أجِلَّتُهُ كالظُّلَلْ

يبادِرُه كلُّ مستبسلٍ كحَدِّ السِّنان شجاع بطل

صبورٍ وقورٍ لما نابَهُ بكل لذيذ حُسام قصل

مساميح بالخير إذ أوْنبت رياحُ الشتاء بنَحْسٍ شَمَل

أهانوا الصَّبوحَ بضُرِّ الجفا ن مُعْتكرات خلالَ المَحَلْ

رُكوداً رَواسيَ مَنْ يأْتِهِمْ بضُرٍّ يؤُلْ بكريم النَّفَلْ

إذا يَزِن الناسُ أحلامَهم وجدتَهمُ رُجُحَ المُحْتَفَلْ

إذا يُوسرون فلا يبطرون ويومَ البَلاء كرامُ البُلَلْ

أولئك قومي لو تعلمين يوم التباهي ويوم الزَّحَلْ

فإمّا أعَمَّتْهمُ مِدْحتي فلا أنا بالكاذب المُنتحِلْ (٢)

١) وفيات الأعيان ٣٠٨/٣ ، ونزهة الجليس ٢١١/٢ ، وتربى : تنشأ ، ويرف : يتلألأ ويبرق ، والاكليل : التاج . ٢) شعر النعمان ١٠٩ ، وأدلف : قدم ، وذئفانه : سمه القاتل ، وجلال كل شيء : غطاؤه ، والظلل : السحاب ، وحسام قصل : سيف قاطع ، وأونبت =

فأبطال قومه يخوضون المعارك الرهيبة التي يتخطّف الموت من صناديدها العدد الجمّ الكثير ، إلا أنهم مع ذلك يقدمون ببسالة وثبات ويذكر النعمان كرم قومه في أيام القُرّ القارس من الشتاء ، عندما تعصف ريح الشتاء الباردة ، فيبذلون في ذلك الحين العصيب طعامهم ويضاعفون عطاءهم لمن يعتفيهم . إنهم حلماء أكياس لا يأشرون في الرخاء ولا يضنون في المحن ، ويؤكد الشاعر أن ما ينعتهم به حقّ محض لا تزوير فيه ولا تضليل .

ولو رجعنا البصر فيما تقدّم من افتخار بالنفس المنعّمة الكريمة والمواهب الفاضلة الحميدة من قوّة وحزم وبلاغة وبراعة حجاج وبذل المعروف ومعاملة حكيمة وقرض للشعر وإقدام وكرم وحلم ؛ وجدنا أنها ـ في تناولها على هذه الشاكلة ـ لم تلبس الثياب الإسلامية التي فُصّلت لهذه المعاني والأغراض ، ولكنها ـ في الوقت نفسه ـ لم تخالف مبادىء الدين الحنيف ، فاستمرّت على ما كانت .

٣ ـ قيم قديمة مجدّدة :

يمتاز النموذج الثاني من الفخر الإسلامي في شعر الفقهاء بقيم عرفت أيضاً من قديم ، غير أنهم خلعوا عليها مفاهيم جديدة أوشكت ان تفصمها من ماضيها فصماً كاملاً ، وشدّتها إلى المقاصد الدينية بأواصر محكمة ، وأسبغت عليها سمات وشيات لم تكن تعهد فيها من قبل .

في الحماسة نرى النعمان بن بشير يفتخر بجيش لجب جرّار ، ويرجو انتصاره على الطاغين الباغين ، وهو انتصار يستمدّ قواه من الله الذي لا يخفى عليه ما يُسرّه الظالمون وما يعلنونه :

بل ليت شعري متى يعزّ ذو لَجَبٍ جَمّ الصواهل مثل العارض الغادي
حتى يُبير قبيلاً قد طغَوْا وبغَوْا والله للظالم العادي بمرصاد

= اشتدت ، وشمل : ريح شمالية ، والصبوح : ما حلب من اللبن بالغداة وما أصبح عندهم من شراب ، ومعكرات : مملوءات ، والنفل : عطية التطوع ، والبلل : الاحتمال على الاساءة ، ويوم الرحل : يوم التباعي ، ورحل : تنحى .

بين الثويّة والجسرين يَقدمها حمّال ألوية طلّاع أنجاد (١)

فالافتخار بالكتائب المدجّجة قديم ، إلا أن في جيش النعمان قسمات حديثة ، فهو يجاهد الطغاة الظالمين ، والله للطغاة الظالمين بالمرصاد ، وهذا معنى قرآني ذكر بعد الحديث عن طغيان عاد وثمود وفرعون ، وما صبّه الله عليهم من عذاب ، فقال تعالى : « إن ربّك لبالمرصاد » (٢) .

وكان من الحماسة القديمة الفخر بالعتاد الحربي ، وزيد بن علي يذكر من هذا العتاد السيف والرمح ، لكنه يستنصر الله ، ويتحدّث عن آمال يسعى إليها ، غير أنه لا ينسى القدر الغالب ، وانه لن يبلغ مأمله ما لم يشأ الله :

السيف يعرف عزمي عند هزّته والرّمحُ بي خُبُرٌ والله لي وزرُ
إنا لنأمل ما كانت أوائلُنا من قبل تأمله إن ساعد القدرُ (٣)

وقد مرّ بنا كيف اعتدّ عروة بن أذينة بكنانة وقريش وسائر القبائل العدنانية ، ولكننا نراه الآن يفخر بأن القرشيين ليسوا ـ إذا اشتدت الحرب ـ بالضعفاء يأكلهم أعداء الدين ، بل إنهم ـ إذا ما بغى عليهم باغ ـ جعلوا كيده في نحره ، فباء بالخسار والبوار ، حتى لو تألّب عليهم أهل الفساد قاطبة ما استطاعوا أن ينالوهم بسوء ، وليدحرنّهم جنود الله دحراً ويمحقونهم محقاً ، إن هؤلاء هم السادة الأخيار ، وإليهم ترجع الأصول والأروم :

وما قريش إذا عضّتْ حروبهمُ يوماً بأكْلَةِ جافي الدين غوّانا
وما أرادهمُ باغٍ يَغُشّهم يبغي الزيادة إلاّ ازداد نُقْصانا
إذا الشياطين رامتهم بأجمعهم لم يُبْقِ منهم جنودُ الله شيطانا

١) شعر النعمان ١٤١ ، واللجب : الصوت والجلبة ، وجم الصواهل : كثير الخيل . والعارض : السحاب . ونبير : نهلك ، والثوية : موضع قريب من الكوفة ، وجسرين : موضع بدمشق ، والنجد : المرتفع من الأرض . ٢) صورة الفجر ١٤ .
٣) المستطرف ١/٢٢٦ .

م العرانين والأثرون قبضَ حصىً
وجوهر السرّ والميدان عيدانا

والأكرمون نصاباً في أرومتهم والأثقلون على الأعداء أركانا[1]

فقريش تقاتل ، لا من أجل العصبية الجاهلية ، وإنما انتصاراً للدين الحنيف .

وقد كان مما عرف من قديم مكرمة السخاء ، ولكنّ عبدالله بن عباس - رضي الله عنه - يفتخر بأنه يفرّج بماله الكرب عن الذي قد أقلقه الفقر وأرهقته الحاجة فقصده يطلب العون ، ونراه يشكر لقاصده المحتاج أنْ ظن فيه الخير ورجا منه المساعدة :

إذا طارقاتُ الهمّ ضاجعت الفتى وأعمل فكر الليل والليل عاكرُ
وباكرني في حاجة لم يجدْ بها سواي ولا من نكبة الدهر ناصر
فرجتُ بمالي همّه من مقامه وزايلَهُ همٌّ طروق مُسامرُ
وكان له فضل عليّ بظنّه بيَ الخيرَ إني للذي ظنّ شاكرُ[2]

وتفريجه الهمّ على هذا النحو يذكرنا بالحديث النبوي : « مَنْ كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومَنْ فرّج عن مُسلم كربة فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة »[3] .

فالشعراء الفقهاء طرقوا في هذا النمط من الفخر معاني وأغراضاً لم تكن مجهولة من قبل ، بيد أنهم ألبسوها ثياباً ذات طراز إسلامي ، وأمدّوها بمضامين من هَدْي الرسالة المبعوثة ، فتبدّلت خَلْقاً جديداً ومضموناً جديداً ، ولم تعد تشبه حالها الأوّل إلا في الاسم . فالجيوش تحارب ، لا من أجل العصبية القديمة ، وإنما جهاداً للطغيان ومناهضة للظلم الذي لا يرتضيه الله ، والمحاربون يستعينون بربهم

١) شعر عروة ١٣٦ ، والأكلة : المرة من الأكل ، والأكلة : اللقمة والطعمة ، وجا في الدين : سبيل الاعتقاد ، وغرثان : جوعان ، والعرانين : السادة ، ونصاباً : أصولاً ، والارومة : الاصل .
٢) العمدة ١/١٦ ، والعقد الفريد ١/٢٦٧ . ٣) رياض الصالحين ٨٤ .

ويتوكلون عليه ، والفخر بالقبائل يحول اعتزازاً بما تقدّمه في الدفاع عن الدين الحنيف ، والجودُ بالمال لا يبذّر في مجالس اللهو والخمر والمقامرة والقيان ، وإنما يبذل في تفريج الكرب وتلبية المحتاجين .

٤ - قيم جديدة :

ويمتّ إلى القيم المجدّدة بأواصر قوية النموذج الثالث من الفخر الإسلامي في شعر الفقهاء ، وهو ما نادوا فيه بمعان وقيم انبثقت بانبثاق الإسلام ، فاعتزّوا بالشريعة البيضاء ، والخلافة الإسلامية ، والنبي الكريم ، والصحابة ، والدعوة إلى الإسلام ، والجهاد في سبيله .

فعروة بن أذينة يفخر بالرسالة الموروثة عن النبي ﷺ ، وهي رسالة باقية امتدّت راياتها شرقاً وغرباً ، وقامت - منذ قامت - في قوم عروة من بني عدنان :

ورثنا رسول الله إرثَ نبوّة ومِخْلاف مُلْك تالدٍ غير رائم
وملكاً خضمّاً سَلّ بالحق سَيْفَهُ على الناس حتى حاز نقش الدراهم
وقام بدين الله يتلو كتابَه على الناس منا مُرْسَلٌ جِدُّ قائم[1]

وكما افتخر بالرسالة افتخر بالخلافة وما يكون فيها من شورى في قضايا الحُكم :

فينا الخلافةُ والشورى وقادتُها فمَنْ له عند أمرٍ مِثْلُ شورانا[2]

ومما كان مجال اعتزاز كبير وفخار طويل انتساب بعض الشعراء الفقهاء إلى النبي ﷺ أو من ناصره من الصحابة ، فمضوا يبدئون ويعيدون في هذه المكرمة ، يقول الحسين بن علي :

أنا ابنُ عليّ الخير من آل هاشم كفاني هذا مَفْخراً حين أفْخَرُ
وجدّي رسولُ الله أكرمُ مَنْ مشى
ونحن سراج الله في الناس يزهر

١) شعر عروة ٢٤٤ ، وغير رائم : غير زائل ، وحاز نقش الدراهم : كناية عن الملك ، هذا وقد أورد المحقق « رائم » و « قائم » مسهلتي الهمز ، وواضح أن ذلك من عمل النسخة .
٢) شعر عروة ١٣٥ .

وفاطمةُ أمّي سلالةُ أحمد وعمّي يُدعى ذا الجناحين جعفرُ
وفينا كتاب الله أُنزلَ صادقاً
وفينا الهدى والوحيُ والخير يُذكَرُ (١)

فهو يفخر بأبيه علي بن أبي طالب والهاشميين ، ويفخر كذلك بالنبي جدّه ﷺ ، وفاطمةَ أمّه ، وجعفر عمه ، ويعتزّ بالإسلام وما كسبوه من شرف نزوله فيهم.

وللنعمان بن بشير مقطوعة يفتخر فيها بالأنصار وما أبلوه يوم بدر من بلاء حسن (٢) ، وممن أكثروا التغني بهذه المأثرة عروة بن أذينة ، وقد مضى يذكر النبي وصاحبه في محنة الغار أبا بكر ومن كان من قبيلته كنانة من خلفاء وحكام فيقول :

منا الرسولُ وأهلُ الفضل أفضلُهم منا وصاحبه الصدّيقُ في الغارِ
مَنْ عدَّ خيراً عددنا فوق عدّته من طيّبين نسمّيهم وأبرار
منا الخلائف والمُستمطرون نَدىً وقادةُ الناس في بَدْوٍ وأمصار (٣)

ويعود مرّة ثانية فيشيد بانتساب النبي إلى قبيلته ، لأنه ﷺ من قريش بن النضر بن كنانة ، ويشيد أيضاً بالسنة الفاضلة ووجوب تعلّمها ، ويفتخر بالكنانيين البدريين فيقول :

منا النبيُّ الأميّ سُنّتُه فاضلةٌ نافعٌ تعلّمها
وأهلُ بدر منا خيارُهمُ وأفهم العالمين أفهمُها (٤)

ومما احتفظت به المصادر من الفخر بالصحابة قصيدة لعبدالله بن المبارك يقول في تضاعيفها :

إني امرؤٌ ليس في ديني لغامزة لينٌ ولستُ على الإسلام طعّانا

١) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٦٠ ، ونظم الابيات يدعو الباحث لئلا يطمئن إلى نسبتها للحسين ! ٢) انظر شعر النعمان ١٤٧ .
٣) شعر عروة ٢٠٦ ، وعدته : عدده ، والخلائف : الخلفاء . ٤) شعر عروة ٩١ .

فلا أسبّ أبا بكر ولا عمراً ولا أسبّ - معاذ الله - عثمانا
ولا الزبير حواريّ الرسول ولا أبدي لطلحةَ شتماً عزّ أو هانا
ولا أقول عليٌّ في السحاب إذن قد قلتُ والله ظلماً ثم عدوانا
ولا أقول بقول الجهم إنّ له قولاً يضارع اهل الشرك أحيانا
إنّ الجماعة حبلُ الله فاعتصموا بها هي العروة الوثقى لمن دانا (١)

فابن المبارك لا يسكت ممن يريد أن ينال المسلمين بشيء من سوء ، ويفتخر بأنه ليس يشتم أبا بكر ولا عمر ولا عثمان ، فعلّة غلاة الشيعة ، ولا يسبّ الزبير ولا طلحة ، من الذين طالبوا علياً بدم الخليفة الثالث ، ولا يركن إلى زعم الرافضة أن الإمام لم يمت وإنما هو في السحاب إلى حين ، ولا يتزلق فيما ازلق فيه اتباع الجهم بن صفوان الذين فصلوا الإيمان عن العمل فعطّلوا أحكام الدين ، وقاربوا الشرك الصُّراح ، وخير من كل هذا التطرّف ألا تتفرّق بالمسلمين السبل ولا تعصف بآرائهم الأهواء ، ولذلك يعظهم ألا يستمسكوا بالمذهب السيّ الغالب ، لأنه هو السبيل الذي لا يضل بسالكيه .

ومما تغنّى به الشعراء الفقهاء في هذا اللون من أشعارهم إسهامهم بالدعوة إلى الإسلام وتنبيه الناس من ضلالتهم الطامّة وجاهليتهم الأولى ، فاهتدوا - بعد الله - بما بينوه لهم ، وعرفوا عدل الإسلام ونور الإيمان ، قال عروة :

ولولاهمُ لم يهتدِ الناس دينَهم
وضلّوا ضلال النيب تعوي سِقابُها
ولم يهلكوا إلاّ على جاهليّة عصاها عليهم تُرْتَبٌ وعذابُها
ولكن بها - بعد الإله - تبيّنوا شرائع حقّ كان نوراً صوابها (٢)

١) تاريخ ابن عساكر (المعهد) - ٦ ، وطبقات الشافعية للسبكي ١/١٥١ .
٢) شعر عروة ٢٨٦ ، والنيب : جمع ناب وهي المسنة من النوق ، والسقب : ولد الناقة ، وترتب : ثابت .

وداثماً ترتبط الدعوة إلى الإسلام بالجهاد ، ويشيد عروة بنصيب كنانة من النضال الطويل والكفاح الصابر في الذياد عن الرسالة ونصرة الشريعة فيقول :

ضربنا معدّاً قاطبين على الهدى بأسيافنا نُذْري شؤونَ الجماجمِ
وقُمْنا على الإسلام حتى تبيّنتْ شرائع حقّ مستقيم المخارمِ (١)

ويقول :

ونحن على الإسلام ضاربَ جمعُنا
فأعطي فُلْجاً كلَّ جمْعٍ مُصادمِ (٢)

فكنانة قد ناهضت القبائل المدّيّة ، وجاهدتها جهاداً كبيراً ، بل شهرت السيوف انتصاراً للإسلام ودحراً لأعدائه . وكان من المعارك الفاصلة التي قاتل فيها المسلمون خصوم شيرعتهم معركة بدر ، وقد مضى الشعراء الفقهاء يذكرون أبطالها وما كان لهم على المشركين من انتصار ، وقد تقدّم افتخار عروة بمن أبلوا فيها حسن البلاء من كنانة ، وممن ذكرها أيضاً النعمان بن بشير في قصيدته الميمية التي أنشدها أمام معاوية حينما هجا الأخطل الأنصار ، يقول في تضاعيفها :

ألم تبتدركمْ يوم بدر سيوفُنا وليلُك عمّا ناب قومَك نائمُ
ضربناكمُ حتّى تفرّق جمعكمْ وطارتْ أكفٌّ منكمُ وجماجمُ (٣)

وهو يذكّر معاوية بماضي قومه ، أو بعض قومه ، يوم بدر ، إذ شاقّوا المسلمين ، فمزّق الأنصارُ جموعهم وأثخنوهم قتلاً وتدميرا .

• • • • •

فلم يكن فخر الفقهاء ليبلغ حدّ ما بلغ لولا أن أفاض فيه عروة بن أذينة ،

١) شعر عروة ٢٣٥ ، وشؤون الجماجم : مفارق الشعر في الرؤوس ، والمخارم : المسارب وأنواء الفجاج . ٢) شعر عروة ٢٤٣ ، والفلج : النصيب .
٣) شعر النعمان ١٥٥ ، وناب : أصاب .

إذ تحمّل ثلثيه ، وكان هذا الفخر على لونين : جاهلي طرق عروة فيه من دون سائر الشعراء أبواب العصبية الجاهلية ، وإسلامي كان يعفي في صنوف ثلاثة ، دار أولها حول قيم قديمة استمرّت مرضية في الإسلام ، وأشاد ثانيها بمعان عرفت من قديم لكنّه جدّدها بزيّ استنكر على حالته الأولى ، لولا بقاء اسمه ، واعتز ثالثها بقيم ومفاخر جديدة جِدّة تامة .

الفصل الرابع

موضوعات أخرى

١ ـ الوصف :

يأتي بعد الحكمة والغزل والفخر خمسة أغراض هي الوصف والعتاب والهجاء والرثاء والمدح. ويدور الوصف حول الطبيعة وما فيها من أطلال أحبّة غادروها، ومن صحراء لا يبلغ مداها البصر، ومن صنوف الحيوان التي تعمر تلك الصحراء، كما يدور أيضاً حول أشياء متفرّقة كالسحاب والمطر والطريق والمدينة والشيب.

فالنعمان يقف من الطبيعة على ديار أحبته وقد درست وامّحت فلم يدل عليها إلا أطلالها، وما إن استبانت له حتى سالت عبراته بغزارة :

أهيّج دمعك رسمُ الطّلَلْ عفا غيرَ مُطّرِدٍ كالخِلَلْ
نعمْ فاستهلّتْ لعِرْفانه سِراعاً وجادتْ بفيْضٍ سَبَلْ (١)

ولعل أكبر شاعر فقيه اختصّ الأطلال باهتمامه عروة بن أذينة، وهو أكثرهم غزلاً كما رأينا، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائد غزله من دون أن يقف فيها بالأطلال ويصفها، وكنت عرضت عند الحديث عن غزله مطلع قصيدته :

يا ديار الحي بالأجمةْ لم تكلّم سائلاً كلمةْ

وسوف أتحدث عن هذا الغرض عند دراسة الشاعر مع الأعلام، وأكتفي الآن بأوائل قصيدته الثالثة إذ وقف على أطلال أحبته في ذي الأجارع فهاج وقوفه شوقه، وزاد ذلك الشوق ما كان يراه في الأطلال من أوتاد مبعثرة، ونُؤْيٍ مدفون قد كان يمنع في سالف عهوده السيول عن الخباء، وأثافٍ سُوْد، وكُوَم رمال من أنقاض البُنيان القديم، كل ذلك مما أذهل الشاعر، بل حجّر دمعه في مآقيه :

١) شعر النعمان ١٠٥. وعفا : درس، والمطرد : المتتابع، والخلل : بقية الطعام في الأسنان، والخلل : منفرج ما بين الشيئين، والمستهل : جرى وسال. والسبل : المطر الغزير.

أفي رُسومِ محلٍّ غيرِ مَسْكونِ
من ذي الأجارع كاد الشوق يُبكيني
نَفْرٍ عفا غيرَ أوتادٍ منبّذةٍ ومنحنٍ خُطّ دون السيل مدفون
وهامدٍ كسَحيق الكُحْل مُلْتَبِدٍ
أكناف ملمومةٍ أثباجُها جُون
عوارفٌ ذُلُلٌ أمْسَتْ مُعَطّلةً
في منزل ظلّ فيه الدمع يَعصيني (١)

وغالباً تحول الأطلال شيئاً هامداً في الصحراء الرّحبة الممتدة، وكان وصف الصحراء بدأ يتجمّد في صدر الإسلام ولما كان من انهماك الشعراء مع غيرهم من العرب في بناء الدولة الجديدة وإرساء قواعدها، وتثبيت دعائمها، ولما كان من بُعد عن الصحراء فرضته عليهم حياةُ الجهاد في شتى الأقاليم البعيدة عن جزيرتهم، ويظل هذا الجمود مسيطراً على الشعر الأموي، (٢) ولم يستمد ذلك الموضوع شيئاً من مكانته القديمة إلا في شعر الرجاز من أمثال العجاج ورؤبة والزّفيان، وفي قصائد بعض الشعراء كالراعي وذي الرّمة (٣) وعروة بن أذينة.

ولعل هذا ما يعلل قلة وصف الصحراء في شعر الفقهاء، ويمكن القول إن النعمان بن بشير كان ثاني اثنين منهم صوّرا فيافيها المقفرة الغامضة، فهو منذ مطلع القصيدة الأولى في ديوانه يتحدث عن خيل غليظة الأعناق متينة الضفائر تعدو في صحراء وعرة كانت تبدو أسراب القطا فيها ـ إذا استجمعت ـ مثل ركب المسافرين :

يُجاذِبْنَ بالأرسانِ في كل سَرْبَخٍ
سوالفَ كالأمْسادِ مدمجةً غُلْبا

١) شعره ص ١١١. وذو الأجارع : موضع، ومنبذة : مهملة، وأكناف : أطراف، وملمومة : مجتمعة أو مستديرة، وثبج كل شيء : وسطه، وجون : سود، والعرف : الرمل المرتفع، وذلل : لينة.
٢) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء : ص ٧. ٣) المصدر السابق ٧.

بصحراءَ قيقاءَ تخالُ بها القطا
إذا ادّركتْ فاستجمعتْ رفَضاً ركْبا[1]

وكثيراً ما نرى مثل هذه اللوحة عن الصحراء في شعر عروة بن أذينة أول الشعراء الفقهاء نسباً لها، فهو يصور مصاعب اختراقها، وتوهج شمسها، ولمان آليها، وامتداد اتساعها مما يجعل القطا يحار ويفترق أسراباً أسراباً[2]، وهو يقص كيف كلّفته سعدى - فيما كلفته - تجشم يوم حارّ مُلتهب في اجتياز فلاة يضج فيها عواء الذئاب، من شدة القيظ، وتأوي بقرها إلى أكنتها اتقاء وهج الشمس، ويرتفع صرير الجراد، وتنتصب الحرابيّ كالعيدان، ويوشك اللهيب المضطرم أن يشوي الوجوه من لظاه شيئاً:

وكم كلّفتنا من سُرى جِدّ ليلةٍ
حبيبٍ إلى السّاري المُجِدّ انجيابُها
ومن فَوْرِ يومٍ ناجمٍ مُتضرّمٍ
بأجوازِ مَوْماةٍ تعاوى ذئابُها
يظلّ المها منها إلى كل مكْنِسٍ
دُموجاً إذا ما الشمس سالَ لعابُها
ووالى الصّريرَ الجُنْدُبُ الجَوْنُ وارتقتْ
حَرابيّ في الميدان حانَ انتصابُها
تكاد - إذا فارت على الركب تلتظي
وَدِيقتُها - يشوي الوجوهَ التهابُها[3]

١) شعر النسان ٧٩، والسريح: انفلاة، والسالفة: ناحية مقدم العنق أو اعلاها. والمسد: الليف أو الجلد، والقلب: غلظ الرقبة والصحراء القيقاء: الغليظة أو المتفادة. والرفض: الجماعات.
٢) انظر شعر عروة ص ١٦٤.
٣) شعر عروة ص ٢٧٣، وانجيابها: انتهاؤها، والفور: الجيشان، وناجم: طالع، والجوز: الوسط، والمهاة: البقرة الوحشية، والمكنس: مأوى البقر الوحشي والظباء، ودموجاً: دخولاً. والجندب: ضرب من الجراد، والحرباء: دويبة تستقبل الشمس برأسها، والوديقة: شدة الحر.

ولعل من الواضح ارتباط وصف الصحراء بوصف حيوانها وطيرها، فالنمان يذكر الخيل والقطا، وعروة يتحدث عن الذئاب والمها والجندب والحرابيّ، وغالباً تتردّد - في نعت الصحراء - هذه الحيوانات وامثالها من الظباء والنعام والمُهْر[1]، ويأتي وصف الناقة سفينة الصحراء في طليعة تلك الموضوعات غير مدافع. فالنمان يبلغ مشرَه على ناقة نشطة قوية ضخمة بيضاء اللون قد اعتادت السفر الطويل[2]، وقد يعني همومه على ناقة جمالية ما تزال تعلوي الفيافي البعيدة حتى تكلّ[3]، وتكثر هذه الظاهرة لدى عروة بن أذينة لما في قصائده من تصوير لكثير من مشاهد الصحراء وأحيائها، فمرة يبريها بناقة خفيفة الحركة جَلْدة على عبور كل مفازة مضلّة مجهولة[4]، ومرة تمضي الظعن على كل جَمَل «وَهْم طويل القَرَى» وناقة سريعة عُبْر أسفارٍ ضخمة قوية[5]، وطوراً يُرْدي أسفاره بناقة مكتنزة اللحم مشتدة الأسر بهيّة الخِلْقة فتية العمر، كان تهيّأ لها مرعىً خِصب ومَرتعٌ نضير الكلأ كثير المياه بهيج الأزهار فماشت فيه أربعة أشهر ناعمة مترفة، حتى إذا اشتدت وتمّت لها قواها ركّب على متنها الرحل والهودج، وما زال يطلب عليها حاجاته ويردي بها أسفاره حتى ضمرت فاتسع عن بطنها القيد، واحدودب صلبها وذاب شحمها وانبرى لحمها، وأصبحت - لنحولها - كالسهم الدقيق، وما كان ذلك لولا التعب البالغ والإرهاق المستمرّ:

هيهاتَ لا وَصْلَ إلاّ أن تُجدِّدَه
بذاتِ مَعْجَمَةٍ مِرْداةِ أسْفارِ
ملمومةٍ نُحِتَتْ في حُسْنِ خِلْقتِها
وأُجْفِرتْ في تمامٍ أيّ إجفارِ

١) انظر هذه الأصناف الثلاثة في شعر عروة ص ١٥٥ وما بعدها.
٢) شعره ص ١٠٨. ٣) شعره ص ١٢٣ وما بعدها.
٤) شعر عروة ١٦٥ وما بعدها. ٥) شعر عروة ٢٢١.